

كلية الآداب



شعبة التاريخ الإسلامي

الدراسات العليا

جامعة بنغازي



قسم التاريخ

((لسان الدين بن الخطيب))
776-713 هـ / 1313-1374 م
دراسة تاريخية ((

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات درجة الإجازة العالية
((الماجستير)) بكلية الآداب قسم التاريخ بتاريخ (.....)

إعداد الطالبة :

حدود داوود الحسين

إشراف الدكتور

ا. د. إدريس صالح الحرير
أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية
كلية الآداب - جامعة بنغازي

تاريخ المناقشة
(.....)

كلية الآداب



شعبة التاريخ الإسلامي

الدراسات العليا

جامعة بنغازي



قسم التاريخ

((لسان الدين بن الخطيب))
776-713 هـ / 1313-1374 م
دراسة تاريخية ((

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات درجة الإجازة العالية
((الماجستير)) بكلية الآداب قسم التاريخ بتاريخ (.....)

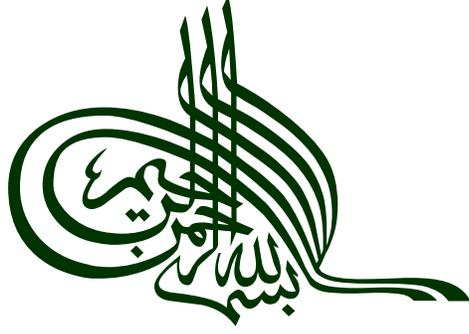
إعداد الطالبة :

حدود داوود الحسين

إشراف الدكتور

ا. د. إدريس صالح الحرير
أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية
كلية الآداب - جامعة بنغازي

تاريخ المناقشة
(.....)



(... يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا

الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)

آية (11) سورة المُجادلة (85)



الإهداء

إلى من علمني أن أرتقي سلم الحياة بحكمة وصبر ،
ورحل دون أن يرى ثمرة هذا العمل .

(إلى والدي العزيز)

أسأل الله أن يسكنه فسيح جناته
إلى من شملتني بعطفها ورعايتها المستمرة طيلة حياتي .

(إلى أمي الحبيبة)

أسأل الله أن يمدّها بالصحة والعافية وطول العمر

إلى من حبهم يجري في عروقي

إلى أخواتي وإخوتي الأعزاء

إلى من وقف معي وشجعني إلى زوجي العزيز عرفاناً لتشجيعه
وصبره .

إلى إبني

(سفيان وبسام)

الشكر والتقدير

(فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبُّوَقَالَ رَبِّ أَوْزَعْنِي أَن أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ

أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ...)⁽¹⁾

إن الحمد لله ، نحمده ، ونستعينه ، ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ،

ومن سيئات أعمالنا .

يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك ، وعظيم سلطانك ، لك الحمد حتى

ترضى، ولك الحمد إذا رضيت.

وبعد فإنه لا يسعني إلا أن أقدم جزيل شكري و تقديري واحترامي إلى الأستاذ

الدكتور الفاضل ، إدريس الحرير ، لتفضله بالإشراف على إتمام هذه الرسالة .

كما أتقدم بالشكر والتقدير إلى كل من قدم يد العون بالكلمة الحسنة والنصيحة

الصادقة .

وفي الختام أتوجه بالشكر العميق إلى كافة أفراد أسرتي وإلى صديقاتي الفاضلات على

تشجيعهن المستمر لي.

المحتويات

الصفحة	الموضوعات
 الآية
 الإهداء
 الشكر والتقدير
 المحتويات
أ - ط المقدمة
الفصل الأول: الحياة العامة في غرناطة في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي	
6-3 أولاً : الأوضاع السياسية
16-7 ثانياً : الحياة الاجتماعية
10-9 1- اليهود
12-11 2- النصراني
14-12 3- عادات وتقاليد المجتمع الغرناطي
16-14 4- الأعياد والاحتفالات
19-16 ثالثاً : الحالة الاقتصادية
23-17 رابعاً : الحياة الفكرية
الفصل الثاني : التعريف بالوزير لسان الدين بن الخطيب	
27-25 أولاً : أصله ونسبه
28 ثانياً : زواجه
29-28 ثالثاً : أولاده
28 1- عبد الله
29 2- محمد
29 3- علي
30 رابعاً : دراسته وشيوخه
31-30 1- دراسته
44-31 2- شيوخه

32-31	أ- القيجاطي (ت 730 هـ / 1329 م).....
32	ب- ابن ليون (ت 740 هـ / 1339 م).....
33-32	ج- ابن شبرين (ت 747 هـ / 1346 م).....
34-33	د- ابن الحباب (ت 749 هـ / 1348 م).....
35-34	هـ- الحضرمي (ت 749 هـ / 1348 م).....
35	و- الوادي أشي (ت 749 هـ / 1348 م).....
36	ز- ابن هُذَيْل (ت 753 هـ / 1352 م).....
37	ح- ابن الفخار (ت 754 هـ / 1353 م).....
38-37	ط- ابن جُزَيِّ (ت 758 هـ / 1356 م).....
38	ي- الشريف السبتي (ت 760 هـ / 1358 م).....
40-39	ك- المقرئ (ت 761 هـ / 1359 م).....
40	ل- أبو محمد عبد الخالق (ت بعد 761 هـ - 1359 م).....
41-40	م- ابن الحاج البلفيقي (ت 771 هـ / 1369 م).....
43-41	ن- ابن مرزوق الخطيب (781 هـ / 1379 م).....
44-43	س- أبو سعيد بن لب (782 هـ / 1380 م).....
44	ع- الوثنريسي (ت بعد 787 هـ / 1385 م).....
49-45	رابعاً : تلاميذه
47-45	1- ابن زمرك (ت 796 هـ / 1393 م).....
48-47	2- ابن فركون
48	3- ابن المهنا
48	4- ابن جُزَي الكلي
49	5- المحاربي
49	6- أبو عبد الله الشريشي

الفصل الثالث : حياته الإدارية والسياسية

52-51	أولاً : علاقته بسلاطين بني نصر
55-53	ثانياً : توليه الوزارة.....
66-56	ثالثاً : نشاطه السياسي.....

الفصل الرابع : التغريب والاعتراب في حياة لسان الدين بن الخطيب

- 73-68 أولاً : لجوء السلطان الغني بالله ووزيره إلى المغرب
- 76-74 ثانياً : علاقة لسان الدين بالمؤرخ ابن خلدون
- 81-77 ثالثاً : عودة لسان الدين وسلطانه محمد إلى غرناطة
- 84-82 رابعاً : هروب لسان الدين بن الخطيب مرة أخرى
- 91-85 خامساً : أثر السعيات ضد لسان الدين ونكته

الفصل الخامس : آثاره التاريخية وأهتماماته الأدبية والعلمية

- 108-94 أولاً : مؤلفاته التاريخية
- 98-95 1- الإحاطة في أخبار غرناطة
- 100-98 2- اللمحة البذرية في الدولة النصرية
- 102-100 3- نفاضة الجراب في غلالة الاعتراب
- 105-103 4- ريحانة الكتاب وئجة المنتاب
- 106-105 5- كناسة الدكان بعد انتقال السكان
- 108-106 6- أعمال الأعلام فيمن بويغ قبل الاحتلام من ملوك الإسلام
- 116-108 ثانياً : اهتمامه بالجغرافيا
- 112-110 1- المفخرة بين مدينة مالقه وسلا
- 113-112 2- خطر الطيف في رحلة الشتاء والصيف
- 116-114 3- مقامة معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار
- 131-117 ثالثاً : نبوغه في النثر والشعر ونظم القصائد والموشحات
- 134-132 رابعاً : عنايته بالطب والتأليف فيه
- 135-134 - كتاب الوصول لحفظ الصحة في الفصول
- 136-135 - كتاب عمل من طب لمن حب
- 141-137 خامساً : علاقته بالتصوف
- 146-143 الخاتمة
- 162-148 الملاحق
- 174-163 ثبت المصادر والمراجع

المقدمة

الحمد لله حمداً يليق بجماله وجلاله ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد-
صلى الله عليه وسلم .

أما بعد ... فالوزير لسان الدين بن الخطيب ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد بن عبد الله السلماني ، نسبة إلى (سلمان) موضع باليمن ، ومنه قدم أهله إلى الأندلس عقب الفتح العربي الإسلامي واستقروا في قرطبة ثم انتقلوا إلى طليطلة بعد ثورة أهل الربض بقرطبة سنة (202هـ / 817 م) .

ولما اشتد خطر الفرنج على طليطلة في منتصف القرن الخامس للهجرة انتقلوا أيام جده سعيد إلى (لوشة) ، وفي مدينة (لوشة) ولد ابن الخطيب سنة (713هـ / 1313م) ، ونشأ في غرناطة و بها تلقى علومه على كبار علمائها ، منهم العالم باللغة والأدب والعالم بالفقه والأصول ومنهم العالم بالطب .

فنهل من هذه العلوم ، وفي عام (741هـ / 1340م) تولى الكتابة في ديوان الإنشاء ، وفي عام (749هـ / 1348م) تولى الوزارة خلفاً لأبي الحسن بن الحبيب الذي كان وزير السلطان أبي الحجاج يوسف (الأول) في عصر بني نصر (عصر بني الأحمر) في مملكة غرناطة (الأندلس الصغرى) .

واستمر ابن الخطيب في الوزارة بعد مقتل السلطان أبي الحجاج ، وقيام ابنه محمد (الخامس) الغني بالله خلفاً له ، وصار ابن الخطيب وزيرهم الأول (رئيس الوزراء) .

وإلى جانب هذا النشاط السياسي ، كان لابن الخطيب عقلية موسوعية استوعبت كثيراً من أنواع المعارف والفنون المعروفة في عصره .

وفي سنة (760هـ / 1358م) خُلع الغني بالله و غادر إلى فاس ونزل على سلطان المغرب أبي سالم المريني ، و غادر وراءه لسان الدين بن الخطيب ، ودامت مدة النفي حوالي ثلاث سنوات ولم يخلد فيها ابن الخطيب إلى الراحة ، بل عكف على

القراءة والتأليف وقرض الـ شعر والاتصال بعلماء المغرب إلى أن عاد السلطان (الغني بالله) إلى عرشه في غرناطة ، وطلب من ابن الخطيب وهو في المغرب للقيام بأعباء الوزارة ، وأعاد تلقيبه بذي الوزارتين ، فعلمت مكانته وعظم نفوذه ، فأثار بذلك حسد المقربين إليه كالوزير ابن زمرك تلميذ ابن الخطيب ومعه أبو الحسن على النباهي قاضي الجماعة في غرناطة وكانا صنيعا ابن الخطيب وولي نعمتهما ، فجعلوا يحرضون الغني بالله عليه ويتهمون بالانحراف والإلحاد والزندقة ، فلما علم لسان الدين بذلك رأى من الأسلم له أن يبارح الأندلس مرة أخرى .

وصل ابن الخطيب إلى فاس لاجئا إلى السلطان المريني الذي أكرمه وعاش بأمن لفترة ولكن – للأسف – لم يكف أعداءه عن السعاية به عند السلطان محمد فأذن لهم في إقامة الدعوى عليه بـ (مجلس الحكم) بحجة التهمة التي تذرعوها بها صدر المجلس حكمه عليه بزندقته وإراقته دمه ، وانتهى الأمر به بخلعه و القبض عليه وإلقائه في السجن حيث مات مخنوقاً ثم محروقاً على شفير قبره سنة (776 هـ / 1374م) حيث خنقوا عالماً ، وأحرقوا عالماً .

وبموته فقدت غرناطة والعالم الإسلامي في الأندلس مؤلفاً وشاعراً وفيلسوفاً ، كانت مؤلفاته من أندر الكتب التي عالج فيها مختلف النواحي الأدبية والتاريخية والجغرافية والطبية ، و بلغت مؤلفاته الستين ، ولكنها لم تصلنا جميعاً .

أهمية الموضوع :

إن لسان الدين بن الخطيب من الشخصيات المشهورة التي كان لها دوراً بارزاً في التاريخ الإسلامي في الأندلس .

فما من شك أن ابن الخطيب كان – فضلاً عن دوره البارز في صناعة التاريخ والسياسة لمملكة غرناطة وفاس – موسوعياً في فكره وثقافته وتحصيله ، بالمقدار الذي جعله يتبوأ الصدارة في تاريخ العرب بالأندلس .

ومما لا ريب فيه أنه – على الرغم من الأعباء الرسمية والسياسية التي تولاهما في مملكة غرناطة – قد ترك تراثاً فكرياً ضخماً في متعدد المعارف والعلوم وهذا ما

جعله أن يكون (موضوعاً) لكثير من الدراسات الأكاديمية الجامعية والأبحاث العلمية لكثير من الباحثين .

ومن هذا المنطلق تكمن أهمية الموضوع ، فهذه الشخصية بحاجة إلى إبرازها والتعريف بأهم الأعمال الأدبية والعلمية التي صدرت عن هذه العقلية ، سواء أكانت أعمال سياسية أم أدبية أم علمية .

أسباب اختيار الموضوع :-

من البواعث التي دفعتني لاختيار هذا الموضوع رغبتني في التعرف على هذا المؤرخ والعالم الذي ترك كمًا هائلاً من الكتب ، لتتعرف من خلالها على أحوال تلك العصور الماضية .

كذلك محاولة إعطاء صورة متكاملة عن حياته ، ومعرفة أسباب نكباته المؤسفة .

أهداف الدراسة :

أما أهداف الدراسة فهي تسعى في الرد على التساؤلات الآتية :

من هو لسان الدين ابن الخطيب ؟

كيف استطاع لسان الدين بن الخطيب أن يصل إلى هذه المكانة المرموقة في حياته ؟

من هم العلماء الذين تتلمذ على أيديهم لسان الدين ؟

ما هي أهم مآثره العلمية والأدبية ؟

ما أسباب نكباته ؟

المنهج المتبع في الدراسة :-

أما عن منهجي في هذه الدراسة ، فهو المنهج التاريخي السردى التحليلي ، الذي يعتمد على جمع المعلومات وتحليلها للوصول إلى النتائج الصحيحة .

الدراسات السابقة التي أجريت حول هذا الموضوع :-

إن شخصية بارزة ومشهورة كابن الخطيب ، تركت نتاجاً ضخماً ، في شتى أنواع المعارف من المؤكد أن تكون هدفاً لكثير من الدراسات حولها .

فقد دُرس في آثار الباحثين مفكراً وسياسياً وطبيباً ودرس صوفياً وجغرافياً وتناولته أقلام أديباً وشاعراً و موشحاً ، ودُرس مؤرخاً بارزاً في أعلام الكتابة التاريخية .

كما درس في دراسات وبحوث تعريفية عامة وكثيرة في القديم والحديث ، وقد اعتمدت في دراستي على العديد من هذه الدراسات التي من أهمها .

المقري ، شهاب الدين أحمد بن محمد (ت 1041هـ/1631م) ، وكتابه : نفتح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب) ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت (1388هـ / 1968 م) .

وقد وُ لد المقري سنة (987 هـ / 1579م) في تلمسَ ان في عصر السلاطين السعديين، ثم هجرها إلى المشرق منتقلاً بين حواضره لطلب العلم ، وتوفى في طريق عودته في مصر سنة (1041هـ / 1631م) ، وترك لنا المقري عدّة مؤلفات مهمة ، منها : كتاب (أزهار الرياض في أخبار عياض) ، وكتاب (روضة الأندلس العاطر في ذكر من لقيه من أعلام الحضرتين مراكش وفاس) وغيرها .

وكتابه الذي نحن بصدده ، وهو نفتح الطيب فهو كتاب في تاريخ الأندلس ، وأدبائها الذين يخص منهم بالذكر والدراسة (لسان الدين بن الخطيب) .

ويُعدّ هذا الكتاب من المصادر المهمة في تاريخ الأندلس ، فقد تحدث عن الأندلس منذ دخول الإسلام إليها حتى خروجهم منها ، وهو ينقسم إلى قسمين يختص القسم الأول بالأندلس بوجه عام ، وينقسم بدور ه إلى ثمانية أبواب : الباب الأول في طبيعة الأندلس وجغرافيتها ، والثاني في فتح المسلمين للأندلس ، والثالث في مكانة الدين الإسلامي فيها ، والرابع في قرطبة و الخامس في التعريف بمن رحل من الأندلسيين إلى بلاد المشرق ، والسادس في التعريف بمن وفد إلى الأندلس من علماء

المشرق والسابع عمّا منّ الله تعالى به على أهل الأندلس من توقد الأذهان ، وبذلهم في اكتساب المعارف والمعالي ما عز أو هان ، والثامن في ذكر انتصار الأعداء على المسلمين بالجزيرة .

أما القسم الثاني فهو التعريف بلسان الدين بن الخطيب ، وينقسم كذلك إلى ثمانية أبواب :

الباب الأول في نسبه والثاني في نشأته وترقيته إلى أن أصبح وزيراً ، والثالث في مشايخه ، والرابع في مخاطبات الملوك والأكابر له ، والسادس في مصنفاته ، والسابع في ذكر بعض تلاميذه الأخذيين عنه ، والثامن في ذكر أولاده.

وقد تناول المَقْرِي موضوعات هذه الأبواب بالإيضاح والتفصيل معتدماً على المنهج السردي وكان أسلوبه أدبياً بسيطاً واضح الدلالة دقيق التصوير .

ومن المصادر الأخرى التي اعتمدت عليها في رسالتي :

ابن الخطيب لسان الدين نفسه، في كتابه : الإحاطة في أخبار غرناطة ، تحقيق : محمد عبد الله عنان ، دار المعارف ، القاهرة (1375 هـ / 1955م) ، ويعد هذا الكتاب من أهم مؤلفات لسان الدين التاريخية ، التي استندت عليها كثيراً في دراستي ، وهذا الكتاب يعتبر (معجم أعلام) جمع فيه ابن الخطيب سيّر ملوك وأمراء وعلماء غرناطة ، ومن وفد عليها وسكنها من المشرق والمغرب ، وقسمه إلى عدة أقسام ، قسم للملوك والأمراء وقسم للعمال ، وثالث لذوي النباهة كالقضاة والفقهاء .

وهذا المصدر يعتبر مهماً لما يتعلق بالأندلس من أخبار وأوصاف ومعالم خاصة في عهد الدولة النصرانية ، و الزمن الذي عاش فيه المؤلف ، وقد اعتمدت عليه كثيراً في دراستي في الفصل الأول لمعرفة أحوال غرناطة السياسية والاجتماعية والثقافية .

ومن المصادر الأخرى لدراستي :

ابن الخطيب في كتابه : نفاضة الجراب في غلالة الاغتراب ، تحقيق : أحمد مختار العبادي، دار الكتاب العربي ، القاهرة (د . ت) .

وهذا المصدر مهم جداً لدراستي ، وهو يقع في ثلاثة أجزاء ، المحقق منها الجزء الثاني فقط ، وقد تناول فيه ابن الخطيب حياته في المغرب حين نفيه مع سلطانه (760-763 هـ / 1358-1361م) ، ووصف لنا ما شاهده وعاشه في هذه البلاد مع ذكر الأحداث السياسة للمغرب والأندلس في ذلك الوقت .

فقد بدأ كتابه بالحديث عن قبائل هذا القطر وشيوخه الذين زارهم ، وكيف استقبلوه وأكرموه ، في جبل هنتاتة ومدينة أغمات ، وقد وصف لنا ابن الخطيب في رحلته هذه المنشآت والمؤسسات الدينية والاجتماعية هناك ، ثم ينتقل بالحديث إلى الأندلس وأحوالها المضطربة التي مرت بها غرناطة ، ثم يتحدث عن بعض مؤلفاته وقصائده التي كتبها في المغرب أثناء مقامه فيها ، بعد ذلك يتحدث عن نهاية سلطان المغرب أبي سالم المريني ، ويستعرض الأحداث الداخلية التي مر بها المغرب .

كما يتناول العلاقات المغربية الغرناطية في ذلك العصر ، ثم يعود بالحديث إلى مؤلفاته ورسائله التي كتبها في المغرب حتى نهاية كتابه .

لقد كان هذا المصدر من المصادر التي لا غنى عنها في موضوع دراستي لهذه الشخصية ، لأنه يتحدث عن جانب مهم من حياته ، ومؤلفاته في المغرب .

ومن المراجع التي استندتُ إليها في بحثي ، وهي لا تقل أهمية عن المصادر السابقة منها :-

عنان ، محمد عبد الله وكتابه : لسان الدين بن الخطيب ، حياته وتراثه الفكري ، مكتبة الخانجي ، القاهرة (1388 هـ / 1968م) .

وهذا المرجع ذا أهمية ، حيث إنه يتناول حياة ابن الخطيب ، وقد قسمه إلى عشر فصول .

الفصل الأول : يتحدث فيه عن مملكة غرناطة والمغرب في أيام ابن الخطيب .

الفصل الثاني : يتكلم عن مولد ابن الخطيب ونشأته الأولى .

أما الفصل الثالث : الوزارة والمحنة الأولى .

الفصل الرابع : تحدث عن حياة ابن الخطيب في سلا .

الفصل الخامس : فقد تناول العلاقة بين ابن الخطيب وابن خلدون .

الفصل السادس : ابن الخطيب وهو في أوج سلطانه .

الفصل السابع : رحيل ابن الخطيب عن الأندلس .

الفصل الثامن : يتكلم عن ابن الخطيب ومحاكمته ومصرعه .

والفصل التاسع : بعنوان ابن الخطيب الوزير السياسي .

أما الفصل العاشر : فقد خصصه للحديث عن ابن الخطيب ا لكاتب والجغرافي والعالم والمؤرخ .

وهذا المرجع قد أفادني كثيراً في دراستي ؛ الاجتماعية والسياسية والفكرية .

أما المرجع الثاني فقد رجعت إليه في بعض جوانب من رسالتي فهو :

الشكعة ، مصطفى ، المغرب والأندلس ، دار الكتب الإسلامية ، دار الكتاب المصري ، القاهرة ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت (1399هـ / 1978م) .

وهو من المراجع الجيدة التي لها علاقة بموضوع دراستي ، وهو يتكون من ثمانية فصول ، ويتناول هذا المرجع ميادين الفكر والحضارة والأدب والتراجم في المغرب والأندلس ، الفصل الأول تحدث عن مواقف المستشرقين من الحضارة العربية الإسلامية الأندلسية ، وباقي الفصول تحدثت عن بعض التراجم المهمة ، عن سيرتها الذاتية وأهم أعمالها مثل : ابن خلدون ، والقاضي عيَّاض ، ولسان الدين بن الخطيب ، الذي خصه بالفصل السادس وتحدث عن حياته ومحيطه الثقافي ومنهجه العلمي وبعض مؤلفاته .

ومن المراجع أيضا كتاب :

العبادي ، أحمد مختار ، في تاريخ المغرب والأندلس ، دار المعرفة الجامعية ، القاهرة (1425 هـ / 2005 م) وهو يشمل على عشرة فصول تحدث فيها عن تاريخ

المغرب والأندلس (السياسي والاجتماعي والاقتصادي والثقافي) وما اعتمدت عليه هنا هو الفصل التاسع الذي يتناول (دولة بني نصر أو بني الأحمر في غرناطة) 635 – 897 هـ / 1237 – 1492 م) .

وقد تحدث عن ظروف قيام دولة غرناطة في أيام بني الأحمر ، كما تحدث عن الجوانب الحضارية لمملكة غرناطة وقد اشتملت :

الحياة الاجتماعية والاقتصادية وكذلك الحياة العلمية ، وقد تحدث عن هذه الموضوعات بشيء من الإفاضة ، التي استفدت منها كثيراً .

وهناك العديد من المصادر والمراجع والدوريات التي أثرت بحثي سأوردها في نهاية الرسالة في ثبوت المصادر والمراجع.

أما رسالتي ، فقد قسمتها إلى خمسة فصول ، تسبقها مقدمة ، وتلحقها خاتمة.

الفصل الأول : تحدثت فيه عن الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية والاقتصادية لمملكة غرناطة في القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي ، وهو زمن لسان الدين بن الخطيب ، للوقوف على معرفة المحيط الذي عاش فيه المؤرخ .

الفصل الثاني : تناولت فيه شخصية لسان الدين بن الخطيب أصله ونسبه ودراسته ، وذكر أهم شيوخه وتلاميذه .

أما الفصل الثالث : فقد عرضت فيه حياة لسان الدين السياسية وعلاقته ببني نصر ، ودوره البارز في هذه المملكة ، ورسائله التي ناشد بها الدول المجاورة ، لنجدة وطنه .

والفصل الرابع : خصصته للحديث عن هروب لسان الدين بن الخطيب إلى المغرب مع سلطانه المخلوع (محمد الغني بالله) ، وكيف أن سلطان المغرب رحب بهما أشد الترحاب ، كما تحدثت فيه عن العلاقة بين لسان الدين وابن خلدون ، ثم كيف هرب للمرة الثانية وكيف كانت نهايته المؤلمة .

الفصل الخامس والأخير : تكلمت فيه عن تراث ابن الخطيب الأدبي والعلمي واستعرضت ما توافر لي من مؤلفاته سواء أكان في التاريخ أو في السياسة أو الطب أو الأدب.

وفي نهاية هذه الفصول كانت خاتمة الرسالة التي أدرجت فيها أهم النتائج التي توصلت إليها .

وقد برزت لي خلال هذه الدراسة ، بعض الصعوبات التي أذكر منها:

كثرة نتاج ابن الخطيب في فنونه المختلفة فقد ساهم بـ عبقريته غير المحدودة في العديد من المجالات الأدبية والعلمية المتميزة كفن الرسائل وفنون المقامات والرحلات والتراجم والأدب الصوفي ، وقد تطلب مني هذا المظهر الجهد الكبير في معرفة كتبه ورسائله وخاصة وأن هذا التراث لم يصل إلينا كاملاً .

ومن الصّدّ عاب التي واجهتني في الدراسة أن لسان الدين كتب نتاجه الغزير بأسلوب أدبي رفيع من مخيلته وتصويراته ، ومن ألفاظه وتراكيبه ، وهذا ما تطلب مني الكثير من العناء للخوض في هذا النتاج لتفهم نسيج تقنياته الفنية .

وأرجو في نهاية هذه المقدمة أن أكون قد وُفقت في التغلب على أغلب الصعوبات التي واجهتني ، وأن أكون قد حققت الهدف من وراء هذه الدراسة ، فالحمد لله الذي تتم بنعمته وتوفيقه الصالحات .

الفصل الأول

الحياة العامة في غرناطة

في القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي

((عصر المؤرخ))

أولاً - الأوضاع السياسية .

ثانياً - الحياة الاجتماعية .

ثالثاً - الحالة الاقتصادية .

رابعاً - الحياة الفكرية والأدبية .

لقد فتح العرب المسلمون الأندلس وحكموها مدة طويلة تقرب من ثمانية قرون (92 – 897 هـ / 710-1491 م) وهو تاريخ واحد للوجود العربي الإسلامي في الأندلس ، وإن حاول بعض المؤرخين تقسيم هذه المدة إلى عدد من العصور كعصر الفتح ، وعصر الولاية أو الولاة ، وعصر الإمارة أو الأمراء ، وعصر الخلافة أو الخلفاء .

وكذلك عصر ملوك الطوائف (422 – 483 هـ / 1030-1090 م) ، وهو عصر الضعف ففيه انقسمت الأندلس إلى دويلات صغيرة تتنازع على الحكم .

وما يأتي بعد ذلك عصر المرابطين والموحدين والمرينيين وهو عصر السيطرة المغربية على الأندلس (483 – 743 هـ / 1090 – 1342 م) .

وانتهى هذا العصر بغزو الممالك النصرانية الشمالية المتحالفة على الموحدين في وقعة العقاب سنة (609 هـ / 1212 م)⁽¹⁾ .

و بعد ذلك يأتي آخر عصر في الأندلس ألا وهو عصر بني الأحمر في غرناطة من (629-897 هـ / 1237 – 1491 م) .

وهذه المملكة الإسلامية الأخيرة في الأندلس التي تسمى أيضاً إمارة بني نصر أو الأندلس الصغرى ، لها أهمية خاصة في موضوع بحثنا حيث إنها كانت موطناً للمؤرخ والوزير (لسان الدين بن الخطيب) ، لهذا سنقف عندها لمعرفة أصل البيئة التي عاش فيها هذا العالم المؤرخ .

(1) أحمد مختار العبادي ، لسان الدين بن الخطيب ، مجلة عالم الفكر ، (وزارة الإعلام ، الكويت 1406 هـ / 1985 م) ، العدد 2 ، ص 20-30 .

أولاً - الأوضاع السياسية :-

بعد انهيار دولة الموحدين اثر معركة العقاب (609 هـ/ 1212 م) ، أخذت مملكة قشتالة النصرانية تنظم قوتها للنيل من الأمراء العرب المسلمين ، في هذه الأثناء ظهر أحد الفرسان ويدعى (محمد بن يوسف النصري)⁽²⁾ (629 هـ/ 1232 م) المعروف بابن الأحمر ، وهو ينسب إلى قبيلة الصحابي (سعد بن عبادة سيد الخزرج) وهو أحد كبار صحابة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وهذا ما يضيف على هؤلاء الملوك عراقفة في المجد والنسب .

و قد تمكن هذا الأمير، الذي عقد مع النصارى صلحاً، أن يؤسس مملكة غرناطة (635-898/1238-1492 م) التي استطاعت أن تؤخر سقوط الأندلس ، والحفاظ على الموروث الإسلامي قرابة القرنين ونصف ، على الرغم من تدهور الأوضاع السياسية ، وذلك لكثرة الفتن والثورات الداخلية والحروب الخارجية ، التي تربصت بها من كل جانب.⁽³⁾

لقد قامت هذه المملكة الصغيرة في القسم الجنوبي من الأندلس وامتدت فيما وراء نهر الوادي الكبير حتى ساحل البحر الشامي (البحر المتوسط) ، ومضيق جبل طارق ، ومن الشمال تحدها جيان وفرطبة ، وإشبيلية ، أما من الغرب فولاية قانس

(2) لسان الدين أبو عبدالله محمد السلماني ابن الخطيب (ت 779 هـ / 1374 م) ، اللوحة البيرية في الدولة

النصرية، تحقيق: محمد زينهم، (القاهرة ، الدار الثقافية للنشر ، 1425 هـ / 2004 م) ص 30.

(3) هناء دويدري ، لسان الدين بن الخطيب ، حياته وأدبه ، وأثر المشرق فيه ، أطروحة دكتوراه ، (جامعة

دمشق - كلية الآداب ، قسم اللغة العربية (1408 هـ / 1987 م) ص 6 .

وأرض الفَرَنْتِيْرَة ، وكانت تشمل عند قيامها ثلاث ولايات كبيرة هي ولاية غَرْنَاطَة في الوسط وولاية المَرِيَّة ، وولاية مألقة في الغرب (4).

إن قيام مملكة غَرْنَاطَة كان على أيادي بني الأحمر ، حيث بذل مؤسسها الأول محمد بن يوسف بن الأحمر ، قصارى جهده منذ تسد مه السلطة ، في إرساء قواعد مملكته ، وأصبح الحكم فيها وراثياً ، فقد رسخ مبدأ الوراثة في هذه المملكة ، التي أصبحت مزدهرة في فترات حكم أبنائه وأحفاده من بعده (5).

و قد استطاع محمد بن الاحمر أن يعمل بنشاط وإصرار على تقوية دولته وحمائتها من أعدائه في الداخل والخارج ، كما نجح في استمالة الناس والتقرب إليهم ومعرفة احتياجاتهم.

كما اتسمت سياسته بالذكاء ، وذلك بالتقرب من ملوك المغرب وإفريقيَّة ، للحصول على معونات عسكرية و مادية للنهوض بمملكته (6) ، وبذلك أتيح له أن يُنشئ مملكة غَرْنَاطَة التي أصبحت على الرغم من صغر مساحتها ، وريثة الأندلس الكبرى في علومها وفنونها ، مائتي عام أخرى ، وكان قد مضى على قيام مملكة غَرْنَاطَة حتى مولد ابن الخطيب – موضوع دراستنا – حوالي ثمانين عاماً ، وكانت الحياة السياسية في هذه الفترة قد نعتت بظاهرة استرجاع ملوك قشتالة أراضي الأندلس من المسلمين ، إلى أن أصبحت مملكة غَرْنَاطَة محدودة في ما حولها من المدن والقرى ، فكان عليها أن تقوم بواجب الجهاد ضد نصارى قشتالة ومقاومتهم للحفاظ على كيانها ،

(4) محمد عبدالله عنان ، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين ، ط2 ، (القاهرة ، مطبعة مصر 1378هـ/

1958 م) ص 47.

(5) على محمد النقرات ، ابن الجباب الغرناطي ، (طرابلس ، الدار الجماهيرية 1424هـ/ 2003 م) ص 70.

(6) ابن الخطيب ، اللحة البديرة ، ص45.

ولتحقيق ذلك قام بنو الأحمر بـ التقرب من ملوك المغرب لمد يد العون لهم ، وبالفعل كان المغرب من أولى مهماته المشاركة في هذا الجهد المقدس ، كلما بلغه استنجد بنو الأحمر بهم.⁽⁷⁾

إنّ هذا الصراع من جهة ، والتنافس على الحكم بين أبناء بني الأحمر من جهة أخرى أربك الأوضاع السياسية ، كما كانت علاقة بني الأحمر بسلاطين المغرب علاقة متقلبة يغلب عليها الحذر والتآمر حيناً ، والتقرب والوفاق حيناً آخر ، وكان عصر ابن الخطيب مليئاً بمظاهر الشقاق والنزاع بين أفراد الأسرة المالكة ، أودت بحياة بعضهم وتشريد بعضهم الآخر⁽⁸⁾ ، وكان هو نفسه ضحيتها (وهذا ما سنذكره في موضعه).

فكانت مملكة غرناطة تقوم بأعباء هذا الجهاد الشاق محققة النصر من حين لآخر⁽⁹⁾ ، وبلغت ذروة قوتها في فترة السلطان (أبي الوليد إسماعيل) (725-713 هـ / 1313-1324 م) وولده السلطان أبي الحجاج يوسف (733 – 755 هـ / 1332-1354 م) ، وعرفت هذه الفترة بالازدهار والرقى ، فكان النصف الأول من القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي عصر القوة والفتوة ، وهو أجمع عصورها⁽¹⁰⁾.

(7) محمد عبدالله عنان ، لسان الدين بن الخطيب ، حياته وتراثه الفكري ، (القاهرة ، مكتبة الخانجي (د . ت)) ص 14 .

(8) لسان الدين بن الخطيب ، روضة التعريف بالحب الشريف ، تعليق وتقديم : محمد الكتاني ، (بيروت ، دار الثقافة ، 1391 هـ / 1970 م) ص 10 – 11 .

(9) عنان ، لسان الدين بن الخطيب ، ص 129 .

(10) يوسف شكري فرحات ، غرناطة في ظل بني الأحمر ، (بيروت ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر 1403 هـ / 1982 م) ص 45 .

في هذا العصر عاش ابن الخطيب وبلغ ذروة الجاه والسلطان ، بعد أن مثل
بذكائه ، وأصالة تفكيره أهم ما تمخضت عنه الأندلس .

ثانياً - الأوضاع الاجتماعية :-

كان من نتيجة سقوط القواعد الأندلسية تبعاً في أيدي الإسبان لجوء الكثير من
الأسر المسلمة إلى القواعد والثغور الجنوبية مفضلة الهجرة إلى أرض الإسلام على
البقاء تحت ظلم النصارى⁽¹¹⁾.

وبعد أن أصبحت غرناطة عاصمة الدولة وحاضرتها زاد عدد سكانها
بالمقدمين من الأمصار الأخرى حاملين معهم مواهبهم ومهاراتهم الحرفية إلى وطنهم
الجديد الذي لقي عناية أمراء بني الأحمر واحداً تلو الآخر حتى ازدهرت
وانتسعت مساحتها⁽¹²⁾.

وما يميز سكان غرناطة أنهم كانت تغلب عليهم نزعة العروبة ، خاصة بعد
أن هاجر إليها عدد كبير من البطون العربية القديمة⁽¹³⁾ ، وهم سنيون على مذهب
الإمام مالك إذ ذكر ابن الخطيب سكان غرناطة فقال : ((إنهم كانوا سنيين على مذهب
الإمام مالك ابن أنس ، وكانت أخلاقهم جميلة وصورهم حسنة ، وأنوفهم معتدلة ،
وشعورهم سوداً مرسلة ... وألسنتهم فصيحة عربية ...))⁽¹⁴⁾.

(11) عنان ، لسان الدين ابن الخطيب ، ص48.

(12) شهاب الدين أحمد المقرئ (ت 1041 هـ / 1634 م) ، نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق :
احسان عباس ، (بيروت دار صادر ، 1388 هـ / 1968 م) ج4 / 510 ، محمد رضوان الدابة ، أبو البقاء
الرندي ، (دم 1379 هـ / 1976 م) ص 23-24 ، .

(13) عنان ، لسان الدين ابن الخطيب ، ص64.

(14) ابن الخطيب ، الإحاطة في أخبار غرناطة ، تحقيق : محمد عبدالله عنان ، (القاهرة ، دار المعارف

وإذا نظرنا إلى الحياة الاجتماعية في غرناطة نجدها قلقة تنسم بالحرب والجهاد ولكن دون إهمال العمل والإنتاج الذي اشتهر به سكان غرناطة ، فقد كانت غرناطة تتصف بطابع البهجة والمرح والسرور وهذا واضح في كثرة أعيادهم واحتفالاتهم⁽¹⁵⁾، وفي ذلك قال ابن بطوطة في رحلته : ((... فقد كان القتال قائماً بين المسلمين والمسيحيين وكان السكان يعيشون حالة حرب دائمة ، وإن لم تؤثر تلك الحالة على سير الحياة اليومية))⁽¹⁶⁾ .

فوجود غرناطة بين ثلاث دول مسيحية قوية ألا وهي قشتالة وأرجون والبرتغال جعلها في حالة اضطراب واستعداد دائم للحرب والجهاد.⁽¹⁷⁾

وقد كان الشباب الغرناطي ، يُعدُّ للحرب و يُدرَّبُ على السلاح ، كما يُعلم القرآن في الألواح⁽¹⁸⁾ ، أي أنهم كانوا ماهرين في استعمال الأسلحة .

وأما عن طبيعة المجتمع الغرناطي في ظل بني الأحمر فقد كان يتكون من الأحرار ، والعبيد ، وفئة الملاكين المسيطرين على زمام الاقتصاد ، وهناك فئة الفلاحين ، والتجار الأغنياء الذين ارتفعوا عن العامة في المعاملة ، وهناك العامة وهي من الحرفيين الصغار والعمال والأجراء والعاطلين عن العمل.⁽¹⁹⁾

كما عاشت في هذا المجتمع الطوائف الدينية التالية :

(15) أحمد مختار العبادي ، تاريخ المغرب والأندلس ، ط2 ، (القاهرة ، دار المعرفة 1426 هـ / 2005 م) ص355 .

(16) أبو عبدالله محمد بن عبدالله اللواتي الطنجي ابن بطوطة (779 هـ / 1378 م) تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار أو رحلة ابن بطوطة ، (القاهرة ، المكتبة التجارية الكبرى ، 1383 هـ / 1964 م) ، ج2/189 .

(17) العبادي ، لسان الدين بن الخطيب ، ص31 .

(18) المرجع السابق ، ص31 .

(19) فرحات ، غرناطة ، ص118 – 119 .

(الإسلام ، النصرانية ، واليهودية) ، ولا شك أن غالبية سكان مملكة
غَرْنَاطَة من المسلمين وهم خليطٌ من العرب والبربر⁽²⁰⁾، غير أن أهل الذمة من اليهود
والنصارى كان عددهم كبيراً في هذه المملكة.

1- اليهود :

قد سكن اليهود غَرْنَاطَة منذ القدم حتى سميت باسمهم .

فالمسلمون حينما فتحوا إسبانيا أطلقوا على هذه المدينة اسم ((غَرْنَاطَة
اليهود))⁽²¹⁾.

وقد عاش اليهود – في أيام بني الأحمر – بحرية مطلقة خصوصاً في أعمالهم
التجارية ، كما عمل بعضهم سفيراً لَعَرْنَاطَة في بعض الدول المسيحية ويرجع ذلك
لمهارتهم في اللغات الأجنبية إلى جانب العربية طبعاً ، وقد اشتهر منهم بعض الأطباء
مثل (إبراهيم بن زرزور)⁽²²⁾.

و قد تمتعت طائفة اليهود بالهدوء فترة طويلة ومردّد ذلك تسامح الإسلام
وتعامله الطيب مع الأديان الأخرى ، كذلك حسن معاملة حكام بني الأحمر لهم ورعاية
شؤونهم ومصالحهم ، مع الاحتراس منهم والحيلولة دون قيامهم بأي انتفاضة
معادية.⁽²³⁾

(20) ابن الخطيب ، الإحاطة ، ص 140.

(21) السيد عبدالعزيز سالم ، في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس ، (الإسكندرية ، مؤسسة شباب الجامعة ،

(1406 هـ / 1985 م) ، ص 135.

(22) العبادي ، تاريخ المغرب والأندلس ، ص 358.

(23) فرحات ، غرناطة ، ص 115.

كان ملوك بني الأحمر أكثر تسامحاً معهم إذ أعطوهم الحرية في القيام بمصالحهم وممارسة شعائرهم وتقاليدهم. وقد اشتهر بعض يهود الأندلس ببعض الأعمال منها الطب والتجارة المتنوعة ، كما اهتموا بالصناعات الخفيفة ومنها الحلي ، وبرز منهم كُتّاب وشعراء وفلاسفة وعلماء.(24)

2- النصارى :

قد كان هناك عدد كبير من الأسبان الذين لم يغادروا وطنهم عند فتح المسلمين للأندلس فبعضهم أصبح من المستعربين(*) وبعضهم الآخر من التجار ، وفي زمن بني الأحمر أصبح لهؤلاء النصارى قنصلهم وكنائسهم الخاصة بهم، وعاملهم حكام غرناطة معاملة حسنة خوفاً من أي اضطهاد يقع ضد المسلمين المقيمين في الممالك المسيحية ، لأن المعاملة بالمثل على وفق المعاهدات المعقودة بين الطرفين.(25)

وقد كان للنصارى في مملكة غرناطة حضور بارز ، فالجنود والمسافرون والتجار والأسرى جعلوا الاحتكاك الإيجابي مستمراً بين أبناء الطائفتين فلم يكن بينهم انقطاع ، كما كان أفراد الحرس الملكي على أيام محمد الخامس من النصارى* المتطوعين لحماية السلطان بعد دخولهم الإسلام وكان يوجد في غرناطة طائفة من النصارى الذين برزوا في حقل التجارة(26) ، وأسهموا في تنشيط حركة السفن

(24) فرحات ، غرناطة ، ص118 ، وينظر: الإحاطة ، ج1/ص410.

(*) المستعربون هم النصارى الذين بقوا بعد فتح الأندلس في المدن والبقاع المفتوحة تحت حكم الدولة الإسلامية، ينظر: ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج1/ص112.

(25) العبادي ، تاريخ المغرب والأندلس ، ص359، وينظر: ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج1/ص109

(*) أطلق عليهم النصارى
(26) فرحات ، غرناطة ، ص110.

التجارية ، كما كانوا يقومون بأشغال مختلفة ، كالفلاحة والرعي وبعض الحرف الأخرى ، والأسيرات كُنَّ يعملن في خدمة البيوت والقصور ، أما الأسرى فقد استخدموا في أعمال أخرى كطحن الحبوب وجمع خيوط الكتان وصنع الأخفاف ، وقطع الأخشاب ورعاية المواشي وتشغيل الطواحين (27) ، فكان للنصارى حضور في غرناطة على عهد بني الأحمر.

3- عادات وتقاليد المجتمع الغرناطي :-

كان المجتمع الغرناطي كغيره من المجتمعات الإسلامية الأخرى مؤلفاً من أسر ، وكانت الأسرة على نوعين ، الأسرة الثرية التي تتعدد فيها الزوجات وتكثر فيها الجوارى، والأخرى الفقيرة وفيها يكتفي الرجل بامرأة واحدة(28).

وقد عرف عن المرأة في غرناطة أنها تتمتع بجمال فائق وهذا ما يُشير عليه قول ابن الخطيب :

((وحریمهم حریماً جمیل ، موصوف باعتدال السمن ، وتنعم الجسوم ، واسترسال الشعور ، ونقاء الثغور ، وطيب الشذا ، وخفة الحركات ، ونبل الكلام وحسن المحاورة ، إلا إن الطول يندر فيهنّ ، وقد بلغن من التفنن في الزينة والتناس في أشكال الحلي إلى غاية بعيدة)).(29)

ولم تكن المرأة الغرناطية منعزلة عن مجتمعا ، فقد اشتهرن في عصر بني الأحمر بعض النسوة في ميادين العلم والأدب مثال :-

(27) المرجع السابق ص 110 -114.

(28) فرحات غرناطة ، ص120.

(29) ابن الخطيب ، اللحة البديرة ، ص43.

(حمدونة بنت زياد المكّتب) و (حفصة بنت الحاج الر كوني)
و (صالحة بنت علي بن عمر الأندلسي) و (فاطمة بنت عبدالرحمن بن محمد بن
غالب القرطبي الشراط).

إن المرأة لم تُهمل في عصر بني الاحمر بل تم تعت بحريات حفظت كرامتها
وحقوقها ومن ناحية أخرى لم يغفل ابن الخطيب في كت اباته صفة الرجال من سكان
غرناطة، فوصف ملابسهم وأسلحتهم ودروعهم وتطورها وفي ذلك قال :

((ولباسهم الغالب على طبقاتهم ، الفاشي بينهم الملف^(*) الم صبغ شتاءً والأردية
الإفريقيّة [أي المغرب الأدنى – ليبيا وتونس] والمقاطع^(**) التونسية والمآزر^(***)
المشفوعة صيفاً))⁽³⁰⁾.

أي أن لباسهم عبارة عن قطعة مصنوعة من الصوف تلف على الجسد تختلف
باختلاف أعمارهم وكان الحرير والكتان والقطن يدخل في صناعة ملابسهم الشتوية ،
كما أدخلت عليهم الملابس الإفريقية والتونسية القصيرة .

أما عن حياتهم العامة فكانت حياة مبتهجة ملؤها الاحتفالات بجميع الأعياد ،
فمن مميزات المجتمع الغرناطي أنه يعشق الفرح والاحتفال . فجعل في حياتهم سلسلة
من الأعياد المتواصلة التي انتشرت فيها الغناء والموسيقى في المننديات والمقاهي

(*) الملف : الجوخ (قطعة قماش) المنسوج من الصوف ، ينظر : اللحة البيرية ، ص 41.

(**) والمقاطع التونسية يراد بها قماش من الكتان تصنع منه القمصان ، يُنظر : حسين مؤنس ، غرناطة تحفة من
تحف ال فن وعجبية من عجائب التاريخ ، مجلة العربي ، العدد 89 ، (وزارة الإرشاد ، الكويت 1385 هـ
1966/ م) ص 70.

(***) المآزر : جمع منزر وهو السروال ضيق من الأسفل يصل إلى منتصف الساق ، يُنظر : مؤنس ، مجلة
العربي ، ص 70.

(30) ابن الخطيب ، اللحة البيرية ، ص 41.

العامه⁽³¹⁾، فقال ابن الخطيب في ذلك : ((والغناء بينهم فاش ، حتى في الدكاكين التي تجمع صنائعها كثيراً من الأحداث ، كالخفافين^(*) ومثلهم))⁽³²⁾.

4- الأعياد والاحتفالات :

قد تنوعت الأعياد والاحتفالات عندهم ، فهم يحتفلون بالأعياد الدينية مثل : عيدي الفطر والأضحى المباركين ، كما يحتفلون بذكرى المولد النبوي الشريف وذلك بالخروج ليلاً في مواكب الشموع ، كانوا يقيمون الولائم ويتلون القرآن ، و يقومون بالبتهالات والأمداح والموشحات الدينية ، وهذه الاحتفالات تقام لعظمة هذه الذكرى.⁽³³⁾

كما انتشرت عندهم الاحتفالات التي كانت تقام في بعض المناسبات السعيدة كانتصاراتهم الحربية ، أو عند شفاء سلاطينهم من المرض ، لقد كانت حياتهم مليئة بالفرح والابتهاج رغم الخطر الذي كان يدهم ويهدد صفو عيشهم .

كما ظهرت وسائل تسلية مختلفة بين أبناء المدن والقرى وكان أولها الصيد الذي يجدون فيه لذة ومتعة شديدة فاقت جميع أنواع اللهو ، وأصبح شغلهم في أوقات فراغهم⁽³⁴⁾، خاصة لدى سلاطينهم ، وممّا اشجع على هذه التسلية هو توافر بعض

(31) إبراهيم إبراهيم ، الرئيس ابن زمرك ، مجلة العربي ، عدد 46 ، (وزارة الإرشاد ، الكويت) 1382 هـ / 1962 م) ، ص 109 .

(*) جمع خفاف وهو الذي يصنع الخفاف أي الحذاء ، ينظر : ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج 1 / ص 143 .

(32) ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج 1 / ص 143 .

(33) العبادي ، تاريخ المغرب والأندلس ، ص 359 .

(34) فرحات ، غرناطة ، ص 136 .

الحيوانات المختلفة في مرتفعات غرناطة وانتشارها مثل : الدببة الجبلية و الغزلان
والطباء⁽³⁵⁾ .

وهناك بعض الهوايات الأخرى ، كالفروسية وسباقات الخيل والرمي ، وقد
خصصت لها الساحات لتمارس فيها ، ومن أ برز ما انتشر عندهم ظاهرة قتال
الحيوانات التي وجد الناس في مشاهدتها تسلية ولذة خاصة ، ومنها مصارعة الثيران
التي يجمع فيها الغرناطيون بين ثور ومجموعة من كلاب في صراع بينهما⁽³⁶⁾ وهذا
النوع من المصارعة الوحشية كان موجوداً في زمن قريب في إسبانيا وقد ألغيت بعد
جدال طويل أواخر 2011م .

وكحال أي مجتمع راق ومتطور يكون مقسماً بين حالتين ، بين الفقر والغنى ،
وبين الإيمان واللايمان ، وبين الالتزام واللا التزام ، وهذا ما كان عليه المجتمع
الغرناطي ، فقد عاش قسم من أبناء غرناطة حياة رخاء وسعة – على الرغم مما كان
يهددهم من أ خطر جيرانهم المسيحيين – فكثرت عندهم مجالس اللهو والترف
والمجون وكثر عندهم شرب الخمر والغناء كما انتشرت عندهم ظاهرة تناول
المخدرات⁽³⁷⁾ ، مع كون بعض هذه الممارسات محرمة في الإسلام والبعض الآخر
منها غير مستحبة .

(35) أحمد محمد الطوخي ، غرناطة الإسلامية ، مجلة أوراق ، العدد 4 ، (المعهد الإسباني العربي للثقافة

1402هـ / 1981م) ص 143 .

(36) المقري ، نفتح الطيب ، ج 6 / 460 .

(37) فرحات ، غرناطة ، ص 126 .

فأشار ابن الخطيب إلى أن الحشيش في غرناطة قد انتشر بين الخاصة والعامّة وحل محل الخمر في المحافل ومجالس الطرب (38).

ولربّما كان ذلك على الرغم من مخالفته للشرع، و ما يعكسه من ضعف الإيمان ، إنما هو لتخفيف حدة الخوف الداخلي لديهم بسبب ما يحرق بهم من أخطار خارجية ، أو لتقليد غير المسلمين في ذلك.

وبدون شك هذا من مفاصد الأخلاق التي تؤدي إلى انهيار الأمم كما هو معروف في التاريخ وكما قال الشاعر :

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن ذهبت أخلاقهم ذهبوا

ثالثاً - الحالة الاقتصادية :-

أصبحت غرناطة بعد سقوط المدن الأندلسية الكبرى عاصمة الدولة وحاضرتها ، وكثر سكانها وازدهرت مواردها الاقتصادية فكان سكان غرناطة من مختلف العناصر الأندلسية التي هاجرت إليها بعد ضياع أرا ضيها في يد الإسبان ، ومما لاشك فيه أن أغلب هذه العناصر المهاجرة وهبت هذا الوطن الجديد خبراتها ومواهبها للنهوض به والدفاع عنه ، فزرعوا كل شبر من هذه المملكة ، لتصبح دولة حضارية مزدهرة. (39) . فأهم الموارد التي اهتم بها سكان غرناطة هي الزراعة التي كانت مورداً رئيساً لدعم اقتصاد هذه الدولة ، كما أن طبيعة الأرض قد ساعدت على

(38) ابن الخطيب ، نفاضة الجراب في علالة الاغتراب ، تحقيق : احمد مختار العبادي ، (القاهرة ، دار الكتاب العربي (د.ت) ج 2 / 183 .

(39) العبادي ، لسان الدين بن الخطيب ، ص 343 .

ازدهار هذه الزراعة ونجاحها ، نظراً لوفرة الوديان والسهول الخصبة ، كما قال ابن الخطيب :

((وهؤلاء السكان المهرة ببراعتهم استطاعوا فلاحه الأرض وزراعتها ، وتربية المواشي ، وغرس الحدائق ، ونقلوا من المشرق والمغرب أنواع شتى من المحاصيل كالقطن والأرز ، وقصب السكر ، وغيرها ⁽⁴⁰⁾)).

إلى جانب ما تعطيه الأرض أساساً من بعض المحاصيل مثل الزيتون والتوت والكروم ، وبعض الحبوب ، كما اهتموا بطرق الري وتوزيع المياه وذلك بتنظيم قنوات الري ⁽⁴¹⁾ . وقد أكد ابن بطوطة في رحلته لغرناطة على ما تتميز به هذه المملكة من تقدم في الزراعة خاصة زراعة الفواكه على اختلافها فقال :

((قاعدة بلاد الأندلس ، وعروس مدنها وخارجها لا نظير له في بلاد الدنيا ... والبساتين والجنان ، والرياض ، والقصور ، والكروم محدقة بها في كل جهة)) ⁽⁴²⁾ .

فعلى الرغم من أن البيئة الجغرافية التي نشأت فيها مملكة غرناطة ، بيئة جبلية قاسية تحتاج إلى الكثير من الجهد والمال والسماح لإصلاحها ، إلا أنها استطاعت بفضل سواعد أبنائها وخبرتهم الطويلة الموروثة ، أن تتحول أراضيها الصعبة إلى جنان وارفة الظلال كثيرة الخيرات ⁽⁴³⁾ .

إلى جانب الزراعة كانت هناك الصناعة والتجارة فالإقتصاد الغرناطي كان أساسه الزراعة والصناعة والتجارة معاً ، أي يُصنَع ما ينتج من الزراعة ويُصدَّر

(40) ابن الخطيب ، اللمحة البديرة ، ص 19 .

(41) فرحات ، غرناطة ، ص 141 .

(42) ابن بطوطة ، رحلة ابن بطوطة ، ص 189 .

(43) ابن الخطيب ، الإحاطة ، ص 121 ، 139 .

الفائض منه إلى الخارج، فقد انتشرت كثير من الصناعات في مملكة غرناطة ،
صُدرت إلى الأقطار المجاورة ، مثل صناعة الحرير بأ نواعه المختلفة ، وصناعة
الملابس الصوفية والجلدية ، كذلك صناعة السكر التي تعتمد على زراعة قصب
السكر وعصره (44) . كما وجدت صناعة دبغ الجلود ونقشها ، كذلك صناعة الخزف
التي استعملت في تزيين القصور (45) .

ويرجع ازدهار الصناعات المعدنية إلى وجود مناجم المعادن المختلفة في
غرناطة ، فقد انتشرت مناجم الحديد والفضة والرصاص كما وجدت
مناجم الذهب (46) .

يرجع الفضل في ازدهار التجارة وتقدمها في غرناطة وجود موانئ بحرية
أسهمت في تطورها ، فتلك الموانئ كانت عامرة بالسفن المارة عبر البحر (المتوسط
) إلى المغرب ومصر والشام والعراق والحجاز وآسيا الصغرى حاملة معها منتجات
غرناطة وعائدة بكنوز المشرق ونفائسه (47) .

وهكذا فإن الحياة الاقتصادية في مملكة بني الأحمر تتناقص ، على الرغم من
الحروب مع الإسبان التي أرهقت التجارة وأصابها الاقتصاد بهزات أعاقت تطورها .
إنَّ ما سبق عرضه هو عبارة عن أضواء على البيئة العامة التي صقلت
شخصية المؤرخ (لسان الدين بن الخطيب) التي عاش فيها وقد أثرت فيه وأثر فيها .

(44) العبادي ، في تاريخ المغرب والأندلس ، ص 368 .

(45) المقرئ ، نفح الطيب ، ج 1 / 163 .

(46) محمد بن عبد الله بن عبد المنعم السبتي الجميزي (ت حوالي 866هـ/1461م) الروض العطار في
خبر الأقطار ، (تحقيق إحسان عباس) بيروت ، دار صادر 1450هـ/1984م) ، ص 24 .

(47) العبادي ، في تاريخ المغرب والأندلس ، ص 370 .

رابعاً - الحياة الفكرية والأدبية :

بلغ العصر الغرناطي من الرقي العلمي والفكري مبلغاً رائعاً ، وهو بذلك امتداد واستمرار لما قبله من الازدهار الحضاري الذي وصلت إليه العصور السابقة ، مع إضافات جديدة ومتطورة في الجانبين العلمي التطبيقي ، والنظري الفكري (48) ، فالحياة الفكرية والأدبية قد نشطت نشاطاً ملحوظاً ورفيعاً في القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي في غرناطة ، وبرزت نخبة من العقول لنيرة سواء من كتاب أو مصنفين أو شعراء أم علماء أناروا شموع هذا العصر كما كان سابقاً (49) .

وبعد سقوط المدن الأندلسية الأخرى في يد النصارى ، ما كان أمام لأهلها سوى الهجرة إلى غرناطة وكان منهم رجال فكر وفن وأدب ، وعمال مهرة في مختلف المجالات حاملين معهم مهاراتهم ومواهبهم إلى غرناطة وفيها تم إحياء دور قرطبة الحضاري في رعاية الفن والعلم (50) ، وبذلك وعلى مدى قرنين ونصف أنجبت مملكة غرناطة أجيالاً من العلماء والأدباء المشهورين ، وتجلت في هذا الازدهار الفكري في عدد من الشيوخ والطلبة الذين عمّرُوا الجوامع والزوايا التي انتشرت في ذلك العصر مخلفين وراءهم عدداً لا بأس به من المؤلفات في مختلف العلوم والفنون. (51)

(48) الداية ، أبو البقاء الرندي ، ص 26 .

(49) أبو الوليد إسماعيل بن يوسف ابن الأحمر (ت 810 هـ / 1407 م) ، تثير فراند الجمان في نظم فحول الزمان ، تحقيق :محمد رضوان الداية ، (القاهرة ، دار الثقافة 1403 هـ / 1982 م) مقدمة المحقق ، ص 8 .

(50) محمد حسن قجة ، محطات أندلسية ، (جدة ، الدار السعودية 1406 هـ / 1985 م) ص 226 .

(51) محمد بنشريف ، من أعلام أواسط العصر الغرناطي ، بحوث الملتقى الإسباني المغربي الثاني للعلوم التاريخية ، (غرناطة 1410 هـ / 1989 م) ص 32 - 33 .

وممّا ساعد على هذا الازدهار في غرناطة ، أن ملوكها كانوا من مُشجعي
الأدب والعلوم ، وكان بلاطهم يعج با لأدباء والعلماء على غرار قصور ملوك
الطوائف.⁽⁵²⁾

وبلغت النهضة الأدبية ازدهارها في عصر السلطان أبي الحجاج يوسف
الأول وولده محمد الخامس ، فأبو الحجاج يوسف ذو همة وفطنة ، عالمٌ وشاعرٌ يحمي
الآداب والفنون ، ويحترم رجال العلم والأدب ، حتى زاد عدد الأعلام في مختلف
الميادين الأدبية والفكرية⁽⁵³⁾.

فقد لمع عدد من الأعلام في المجالات الأدبية المختلفة كان في مقدمتهم
(لسان الدين بن الخطيب ، وابن زمرك ، وأبو الحسن بن الجيّاب ، والقاضي أبو
الحسن النباهي ، والشريف السبتي ، ويحيى بن هذيل ، وغيرهم الكثير.⁽⁵⁴⁾

ومن الملاحظ في هذا العصر اهتمامهم الشديد وتوسعهم في تدريس القرآن
الكريم بمختلف القراءات والروايات ، فقسم من المجتمع الغرناطي في ذلك الزمن كان
على صلة قوية بالأحكام الدينية الإسلامية والعلوم الشرعية وتطبيقها ، ونشر الروح
الدينية بين الناس في حماس ظاهر⁽⁵⁵⁾.

أما الحياة الأدبية في غرناطة ، فكان يغلب عليها الاهتمام بالشعر والنثر ، مع
مشاركة رجال الأدب في العلوم الأخرى ، وقد غلب على هذا العصر الارتباط القوي
بالأحكام الدينية وتطبيقاتها ، وممّا عزز ذلك أن سلاطين بني الأحمر اهتموا بأمور

(52) جودت الركابي ، في الأدب الأندلسي ، (القاهرة ، دار المعارف 1380 هـ / 1960 م) ص 58.

(53) النقرات ، ابن الجياب الغرناطي ، ص 71.

(54) ابن الأحمر ، نثير فراند الجمال ، مقدمة المؤلف ، ص 8.

(55) بنشريف ، في إعلام أواسط العصر الغرناطي ، ص 34.

الشريعة وتوجد به الفقهاء ، فمثلاً السلطان (محمد الثاني) كان يلقب بالفقيه ويوجه الناس على هذا النحو⁽⁵⁶⁾ ، فقال ابن الخطيب في رسالة على لسان هذا السلطان إنه كان ((يندب الناس إلى تعليم القرآن لصبيانهم ، فذلك أصل أديانهم))⁽⁵⁷⁾ .

كما اهتم ملوك غرناطة ببناء المدارس ودور الطلاب ، فانتشرت الربط ، مما ساعد على انتشار حركة التصوف التي سيطرت على الكثير من أفراد المجتمع.

وقد أشار ابن بطوطة في أثناء زيارته لغرناطة عام (751 هـ / 1350 م) إلى كثرة عدد الزوايا الصوفية المنتشرة في الجبال المحيطة بغرناطة مثل : رابطة العقاب، وزاوية ابن المحروق ، فقال : ((ولقيت بغرناطة شيخ الشيوخ و المتصوفين بها الفقيه أبا علي ابن الشيخ الصالح الولي أبي عبدالله محمد بن المحروق ... وأكرمني في أشد الإكرام ، وتوجهت معه إلى زيارة الزاوية الشهيرة البركة المعروفة برابطة العقاب ...))⁽⁵⁸⁾.

فقد يكون هذا الا انتشار والتوجه إلى الله بسبب الخوف والضعف الذي أصاب المسلمين في ذلك الوقت من جراء تهديد النصارى لهم ومحاصرتهم.

وهذا ما أدى إلى كثرة قصائد المرثي التي تبكي ضياع المدن الأندلسية وأشهرها مرثية الفقيه الشاعر الغرناطي (أبي البقاء صالح بن شريف الرندي) التي قال في مطلعها :

لِكُلِّ شَيْءٍ إِذَا مَا تَمَّ نُقْصَانُ فَلَا يُعْرَفُ بِطِيبِ الْعَيْشِ إِنْسَانُ

(56) ابن الخطيب ، روضة التعريف بالحب الشريف ، ص 13 .

(57) المقرئ ، نفع الطيب ، ج 9 / 100 .

(58) ابن بطوطة ، رحلة ابن بطوطة ، ج 2 / 190 .

هي الأمور كما شاهدتها دُولٌ من سرّه زَمَنُ ساءتُهُ أزمانٌ⁽⁵⁹⁾

وقد قال هذه الأبيات يندب بلاد الأندلس ، ويبعث العزائم ويحركها من أهل

الإسلام لنصرة الدين وإنقاذ البلاد .

ومن مظاهر تشجيع بني الأحمر للحركة الفكرية أن انتشرت في أيامهم المكتبات واعتمدَ عليها في نشر العلم و الثقافة ، كما أنهم شيّدوا مدرسة⁽⁶⁰⁾ عرفت باسم (مدرسة اليوسفية) التي أسسها يوسف الأول عام (750 هـ / 1349) ، ونسبت إليه ، كما عرفت بأسماء عدة منها (المدرسة العلمية) و(المدرسة النصرية)⁽⁶¹⁾ .

وأعدت هذه المدرسة لاستقبال الطلبة من كل الأرجاء ، وأصبحت مركزاً للعلوم الدينية واللسانية ، كما اهتمت بجميع أنواع العلوم في ذلك الوقت ، وكانت هدف الطلاب فقصدوها من جميع المناطق داخل غرناطة وخارجها كالمغرب . وكان يتولى التدريس فيها نخبة من العلماء⁽⁶²⁾ كابن هُذَيْل الغرناطي ، وأبي جعفر أحمد بن خاتمة (ت 770 هـ / 1368م) ، الشاعر والطبيب وله كتاب مزية المرية⁽⁶³⁾ .

وقد نقش على أحد جدران هذه المدرسة قصيدة للسان الدين بن الخطيب وهي

ميمية القافية ، وتتألف من تسعة أبيات مطلعها :

(59) المقري ، أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض ، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري ، (القاهرة ،

مطبعة لجنة التأليف والنشر 1359 هـ / 1940 م) ، ج 1 / 47.

(60) ذكر السيد عبد العزيز سالم (أنه لم تظهر المدارس في الأندلس إلا في عصر دولة بني الأحمر) في كتابه

(في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس) ، ص 283 .

وهل يعقل أنه منذ سنة (92 هـ / 710 م) والى (750 هـ / 1349 م) أي أكثر من ستة قرون لم تؤسس مدرسة

واحدة في الأندلس فهذا شيء لا تدعمه الحقائق ولا الوقائع .

(61) مفتاح محمد دياب ، تاريخ العلوم في الحضارة الإسلامية ، (طرابلس ، ليبيا الهيئة القومية للبحث العلمي ،

1413 هـ / 1992 م) ص 120 .

(62) أبو عبدالله محمد الأندلسي المجاري (ت 862 هـ / 1457 م) برنامج المجاري ، تحقيق: محمد أبو الأجنان ،

(بيروت ، دار المغرب الإسلامي 1403 هـ / 1982 م) ص 106.

(63) ابن الخطيب ، الكتيبة الكامنة في من لقيه في الأندلس من شعراء المائة الثامنة ، تحقيق إحسان عباس

(بيروت ، دار الثقافة دبت ، ص 239 .

أَلَا هَكَذَا تُبْنَى الْمَدَارِسُ لِلْعِلْمِ وَتَبْقَى عُهُودُ الْمَجْدِ ثَابِتَةً الرَّسْمِ
وَيُقْصَدُ وَجْهَ اللَّهِ بِالْعَمَلِ الرُّضَا وَتُجْنَى ثَمَارُ الْعِزِّ مِنْ شَجَرِ الْعِزْمِ
فِيَا طَاعِنًا لِلْعِلْمِ يَطْلُبُ رِحْلَةً كُفَيْتَ اعْتِرَاضَ الْبَيْدِ أَوْلَجِجَ الْيَمِّ⁽⁶⁴⁾

ومما يدل على تشجيع العلم والحث عليه في ذلك العصر ، إحصار المعلمين من القرى والمناطق المجاورة إلى العاصمة ، وهذه الظاهرة قام بها الأمير (محمد الفقيه) ثم كانت في أيام (أبي الحجاج يوسف) وابنه (محمد المغني بالله)⁽⁶⁵⁾ ، والجدير بالذكر أن الوزير ابن الخطيب قام بمجهود كبير في البحث عن العلماء والتنبيه عليهم ونقلهم إلى غرناطة ، فقال عند ترجمته لأبي جعفر أحمد بن إبراهيم بن أحمد بن صفوان القيسي:

((إلى أن نظرتُ في أمور الملك ، فانتشلته من مهواه ، ودلت البر على مئواه ، وأسنيته له الجراية ، ونشرت من تعظيمه الراية ...))⁽⁶⁶⁾.

ومن العلوم التي اهتمت بها مدرسة غرناطة علوم اللغة والنحو ، واعتمدت في ذلك على تدريس كتاب سيبويه البصري (ت 171 هـ / 787م)⁽⁶⁷⁾ ، وكتاب

(64) ابن الخطيب ، كناسة الدكان بعد انتقال السكان ، تحقيق محمد شبانة ، القاهرة ، دار الكتاب العربي ، (1386 هـ / 1966 م) ص 155.

(65) محمد عبد الحميد عيسى ، تدخل الدولة في التعليم في الأندلس ، مجلة أوراق ، (المعهد الإسباني للثقافة ، مدريد ، العدد 3 / 1410 هـ / 1980 م) ص 67 - 68 .

(66) ابن الخطيب ، الكتيبة الكامنة ، ص 216 .

(67) أبو البركات كمال الدين الأنباري (ت 577 هـ / 1181) ، نزهة الألباء في طبقات الأدياء ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، (القاهرة ، دار النهضة 1386 هـ / 1967 م) ص 60.

وهو أبو بشر عمر بن عثمان قنبر ، وقد برع في النحو وصنف كتابه الذي لم يسبقه إليه أحد توفي في البصرة سنة (171 هـ / 787 م) ينظر : أبو البركات كمال الدين الأنباري (ت 577 هـ / 1181) ، نزهة الألباء في طبقات الأدياء ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، (القاهرة ، دار النهضة 1386 هـ / 1967 م) ص 60.

الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني الأموي البصري (ت356 هـ/ 966م) ⁽⁶⁸⁾ ، وآثار الجاحظ البصري (ت255 هـ/ 868م) ⁽⁶⁹⁾ ، ومقامات الهمذاني (ت398 هـ/ 1007م) ⁽⁷⁰⁾ والحريري (ت516 هـ/ 1122م) وهذا يدل على أن الأندلسيين كانوا متأثرين بالمشاركة البغداديين ⁽⁷¹⁾ ويعدونهم المثل الأعلى لشعرهم وأدبهم ، ومنبعاً لعلومهم وفنونهم .

كما لم يهمل أهل غرناطة العلوم الأخرى كعلم التاريخ ، والجغرافيا ، وعلم الفلك ، والطب ، والرياضيات ، وظهرت شخصيات مشهورة دفعت بهذه العلوم إلى الأمام ، أمثال : أبي الحسن علي بن عبد الله النباهي (ت793 هـ / 1390م) في حقل التاريخ وله كتاب (نزهة البصائر والأبصار) و(تاريخ قضاة الأندلس) وأبي البركات بن الحاج البليقي (ت773 هـ/ 1371م) وله كتاب (تاريخ المرية) ولسان الدين بن الخطيب الذي لمع نجمه في هذا المجال وألف العديد من المصادر أهمها (الإحاطة في أخبار غرناطة) ⁽⁷²⁾ .

ومن الأطباء المشهورين الذين أنجبته غرناطة الجراح (أبو عبد الله القربلياني – نسبة إلى بلدة قربليان شرق الأندلس – (ت761 هـ/ 1359م) ، وأبو عبد الله محمد الشقوري صاحب كتاب (تحفة المتوسل وراحة المتأمل) – من معاصري

(68) ياقوت الحموي البغدادي ، (ت626 هـ/ 1228م) ، معجم الأديباء ، (القاهرة ، مطبعة دار المأمون 1355 هـ/

1936م) ، ص 94 .

(69) الأنباري ، نزهة الألباء في طبقات الأديباء ، ص192 .

(70) ياقوت الحموي البغدادي ، معجم الأديباء ، ص161 – 202 .

(71) الركابي ، في الأدب الأندلسي ، ص59 .

(72) فرحات ، غرناطة ، ص357 .

ابن الخطيب – ولسان الدين بن الخطيب نفسه ... وغيرهم م من خلفوا كتباً قيمة
أسهمت في إثراء الثقافة الصحية (73) .

يتضح مما سبق أن مملكة غرناطة خلال هذا العصر – عصر لسان الدين بن
الخطيب – كانت مركزاً للعلم ومبعثاً لا حضارة بمختلف مجالاتها ، وشتى فروعها ،
وبرز فيها العديد من العلماء والشعراء على رأسهم (لسان الدين بن الخطيب) ، الذي
عاش في هذه البيئة ، وشارك في نشاطاتها السياسية و الأدبية والروحية ، وتأثر بها
وأثر فيها وأصبح من رجال دولة غرناطة البارزين .

الفصل الثاني

التعريف بالوزير لسان الدين بن الخطيب

أولاً : أصله ونسبه .

ثانياً : زواجه .

ثالثاً : أولاده .

رابعاً : دراسته وشيوخه .

خامساً : تلامذته .

أولاً - أصله ونسبه :

هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد بن عبد الله بن سعيد السلماني اللوشي الغرناطي المعروف بابن الخطيب ، الملقب بالألقاب البغدادية بلسان الدين⁽¹⁾، ولد في بلدة لوثة^(*) الواقعة على نهر شتيل في الخامس والعشرين من شهر رجب سنة (713هـ) / 1313م ، في أسرة اشتهرت بالعلم تنسب إلى سلمان وهو حي من مراد من عرب اليمن القحطانية الذين دخلوا الأندلس عقب الفتح ، واستقروا في قرطبة ثم طليطلة ثم لوثة فغرناطة⁽²⁾، وكانت هذه الأسرة تعرف من قبل (بني وزير) وكانوا من ذوي النباهة مالاً وعلماً ، ثم أطلق عليها (بني الخطيب) نسبة إلى سعيد الخطيب جده الأعلى الذي كان قاضياً بلوثة وخطيباً بمسجدها الجامع ، وكان يلقي دروسه ومواعظه تحت ظلال برج يجاور أملاك أسرته ، ومن ثم فقد غلب عليه اسم الخطيب ، الذي أورثه لبنيه ، فعرفوا ببني الخطيب⁽³⁾ أما لقب لسان الدين فهو من الألقاب البغدادية التي لم يُعرف متى وفي أي ظرف أسبغ عليه هذا اللقب⁽⁴⁾.

واستقر بنو سلما ن أسلاف ابن الخطيب أولاً في قرطبة ، وكانوا من المعارضين لسياسة (الحكم بن هشام أمير الأندلس) ، ولما حدثت واقعة الربض المشهورة في أيامه سنة (202هـ/817م) التي ثار فيها أهل قرطبة ضد الأمير الذي استطاع إخمادها ، فغادر قرطبة كثير من المعارضين ، كان منهم أسرة ابن الخطيب ،

(1) ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج 1/31 ، وكذلك : المقرئ ، نفع الطيب ، ج 5/ص 7 (المقدمة).

(*) ينظر الخريطة بالملحق رقم (1) .

(2) ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج 3/ص 92.

(3) ابن الخطيب ، روضه التعريف ، ص 15 (المقدمة).

(4) المقرئ ، نفع الطيب ، ج 5 ، ص 10.

واستقرت حوالي مائتي عام بمدينة طَلَيْطَلَة ، ثم غادرتها بسبب تهديد النصارى لها في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي إلى موضع أكثر أمناً فقصدت مدينة لَوْثَة ، التي كانت مسقط رأس ابن الخطيب⁽⁵⁾ .

لقد نشأ ابن الخطيب في بيت عربي عريق في العلم والأدب والخطابة والرياسة وقيادة الجند ، وكان أبوه الذي ولد سنة (672هـ/1273م) ، من أكابر العلماء والخاصة ويفخر بذلك وقد مدح بيتهم في أبيات قال فيها :

الطَّبُّ وَالشَّعْرُ وَالكِتَابَةُ سِمَاتُنَا فِي بَنِي النَّجَابَةِ

هُنَّ ثَلَاثُ مُبْلَغَاتٍ مَرَاتِبًا بَعْضُهَا الْحِجَابَةُ⁽⁶⁾

وقد استقر أبوه حيناً في غَرْنَاطَة ثم عاد إلى لَوْثَة ثم عاد إلى غَرْنَاطَة ليلتحق بخدمة السلطان أبي الوليد إسماعيل سنة (713 هـ/1319م) ، الذي استعان به في توطيد ملكه⁽⁷⁾ ، وكان من رجال الأدب والطب ، فقد قرأ على بعض علماء غَرْنَاطَة وأجازَه طائفة من أهل المشرق.

ولما توفي السلطان أبو الوليد إسماعيل سنة (725 هـ/1324م) ، خدم عبد الله (والد لسان الدين) من بعد أبي الوليد ، ولده السلطان (أبا عبد الله محمد) ثم أخاه (أبا الحجاج يوسف) كما خدم في ديوان الإنشاء مع الكاتب والشاعر (أبي الحسن علي بن الجياب) وأسبغ عليه لقب الوزارة.⁽⁸⁾

(5) ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج2/ص32.

(6) المقرئ ، نفع الطيب ، ج5 ، ص16

(7) المقرئ ، نفع الطيب ، ص11-12.

(8) عنان ، لسان الدين بن الخطيب ، ص33.

وقد استشهد عبد الله مع ولده الأكبر في موقعة طريف^(*) (741هـ / 1340م)،

التي هزمت فيها جيوش المسلمين أمام النصارى.⁽⁹⁾

وفُجع ابن الخطيب بأبيه وأخيه وهو في الثامنة والعشرين من عمره ورثى أباه

وأخاه رثاءً حاراً في بعض قصائده منها ما جاء في مطلعها :

حَظْبُ أَلْمَ فَأَذْهَبَ الْأَخَ وَالْأَبَا رَغْمًا لِأَنْفِ شَاءَ ذَلِكَ أَوْ أَبِي⁽¹⁰⁾

ونشأ لسان الدين في غرناطة ، التي انتقلت إليها أسرته ، وتلقى بها دراسته ،

ومع أنه استقر بها منذ حدثته ، فإنه لم ينس قط مسقط رأسه (لوشة) ، فكانت لها في

قلبه منزلة الأم وت غنى بها في شعره ، وسماها (بنت الحضرة) أي (بنت

غرناطة).⁽¹¹⁾

(*) طريف هي أول بقعة ووطنها أقدام المسلمين الفاتحين لبلاد الأندلس و سميت بذلك نسبة إلى طريف بن مالك القائد المعروف ، ينظر: ياقوت الحموي البغدادي ، معجم البلدان ، (بيروت ، دار صادر 1376هـ / 1957م) ، ج 4 ، ص 199 .

(9) ابن الخطيب ، اللحة البدرية ، ص 3 ، وروضة التعريف ، ص 15.

(10) المقرئ ، نفح الطيب ، ج 5/ 12 ، ص 14.

(11) ابن الخطيب ، الإحاطة ، المصدر السابق ، ج 1 ، ص 227.

ثانياً – زواجه :-

لم تسعفنا المصادر – كعادتها مع كثير من العلماء والأدباء – عن زواج لسان الدين بن الخطيب ، ومن هي ؟ وما أسمها ؟ وإلى أي عائلة أو أرومة تنتسب ؟ وهذا الحال يسري على كثير من العلماء والأعلام ، مما يجعلنا نجهل خصوصيات هؤلاء!! وأثر (المرأة) في حياتهم العلمية والاجتماعية والسياسية ، سالباً أو دونه ، صعوداً أو مغايراً له .

ثالثاً – أولاده :-

كان لسان الدين بن الخطيب ، ثلاثة أبناء ، وهم (عبد الله – محمد – علي) وله أيضاً بنات ، دون معرفة عددهن أو أسمائهن كعادة كثير من القدماء والعلماء !

1- عبد الله :

هو أكبر أولاد لسان الدين ، الذي ولد في غرناطة سنة (743 هـ / 1342م) وقرأ على قاضي الجماعة أبي القاسم الحسين (ت 760 هـ / 1358 م) والخطيب أبي سعيد فرج بن لب (ت 782 هـ / 1380م) وقد كتب بالعدّ وتين لملوك الحضرتين (غرناطة وفاس) ، وتولى القيادة والكتابة بالأندلس أيام كان أبوه مدبر الدولة⁽¹²⁾ ، وقد مدحه و الده في الكتيبة قائلاً : ((زنادُ اقتدحته ، وبارق أحته ، وسجل له من رسم السعادة المعادة تسجيلاً ، شعره كان قد حُفظ ولُفظ ولم يرض من الخط ما انخفض))⁽¹³⁾ .

(12) ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج 1 / ، ص 291 .

(13) ابن الخطيب ، الكتيبة الكامنة ، ص 279 – 280 .

2- محمد :

هو ولده الأوسط ، وقد نال حظه من التصوف ، ولم يهتم بخدمة أو مرافقة الملوك، ولم يعبأ بالدنيا ، لذا لم يشتهر مثل أخويه⁽¹⁴⁾ .

3- علي :

هو ولده الأصغر ، أخذ العلم عن أبيه وعن الشريف الغرناطي ، وابن مرزوق، وقد نبغ في الشعر فصار شاعر البيت بعد أبيه . وكان مصاحباً للسلطان أحمد المريني المستنصر بالله ابن السلطان أبي سالم بن السلطان أبي الحسن المريني .⁽¹⁵⁾ وقد كان يهتم بالتدبير والتعليق على كتب والده ، وله تعليقات على كتاب الإحاطة⁽¹⁶⁾ .

هذا ما توافر من معلومات عن أبناء لسان الدين بن الخطيب ، الذي كان خير مؤدب لهم من حيث منهجية السلوك والعيش الملتزم بالمبادئ الإنسانية والامتثال لقيم الشريعة السمحة .

(14) المقرئ ، نفح الطيب ، ج7 ، ص 289 .

(15) المصدر السابق ، ص 289 .

(16) المصدر السابق، ص 290 .

رابعاً - دراسته وشيوخه :

1- دراسته :

كان لقرب غرناطة من مدينة لوشنة الأ مر طبيعي أن ينتقل لسان الدين إلى هناك مع والده ، كما كانت مركزاً للدراسات الإسلامية في الغرب الإسلامي ، ومجمع صفوة علماء الأندلس في مختلف فنون المعرفة ، فدرس ابن الخطيب علوم الدين من شريعة وفقه وعلوم اللغة من نحو وصرف وعلوم التاريخ وفنون الأدب من نثر وشعر ، كما أقبل على قراءة الفلسفة والطب.⁽¹⁷⁾

فقد درس لسان الدين اللغة والشريعة والأدب على جماعة من أقطاب العصر مثل: أبي عبد الله بن الفخار الإلبيري ، وأبي القاسم محمد بن علي الحسيني السبتي ، والمحدث شمس الدين بن جابر الوادي آشي ، وأبي عبدالله بن مرزوق فقيه المغرب الكبير ، والقاضي أبي البركات بن الحاج البلفيقي ، وأخذ الأدب عن الوزير أبي عبدالله بن الحكيم اللخمي ، وأبي سعيد فرج بن لب ، أما الطب والفلسفة فقد درسها على يد الشيخ أبي زكريا يحيى بن هذيل الذي اختص بصحبته.⁽¹⁸⁾

وتلقى ابن الخطيب في ديوان الإنشاء على يد أستاذه المبدع ابن الجياب ، أرفع أساليب النظم والنثر في ذلك العصر ، وظهرت براعته في تدبيج الرسائل السلطانية ، ولما استشهد والده في طريف ألحقه ابن الجياب بالوظيفة التي كان يحتلها أبوه ، وكان

(17) مصطفى الشكعة ، المغرب والأندلس ، (بيروت ، دار الكتاب اللبناني د . ت) ، ص311.

(18) المقرئ ، نفح الطيب ، ج5 / ص605+603.

ا بن الجياب حينئذ يتولى رئاسة ديوان الإنشاء في عصر السلطان أبي الوليد إسماعيل⁽¹⁹⁾.

وهكذا فقد قرأ لسان الدين بن الخطيب وتأدب على شيوخ غرناطة وعلماؤها ، وأصبح متعدد الجوانب في علومه وثقافته فبرز في الطب ، وبرع في الأدب ، ونبغ في الشعر والنثر ، وألف في موضوعات مختلفة فأحسن التأليف فيها ، فكان مزيجاً من عبقریات متعددة بلغ القمة في كل منها.

2- شيوخه :

كان لسان الدين بن الخطيب قد درس وأخذ عن جماعة من العلماء والأجلاء ، سواء من أهل العُدوة المغربية أو الأندلس ، عدة فنون وعلوم ، وقد تحدث هو عن بعضهم في بعض مؤلفاته كالإحاطة ، والكتيبة الكامنة ، ومن شيوخه البارزين ما يأتي :

أ- القيجاطي : (650-730هـ/1252-1329م):

هو الأستاذ علي بن عمر بن إبراهيم بن عبدالله الكناني ، القيجاطي ، أبو الحسن ، دخل غرناطة سنة (712هـ/1312م) ، وجلس بمسجدها الأعظم يُدرس فنوناً من العلم من قراءات وفقه وعربية وأدب ، وولي الخطابة ، وناب عن بعض القضاة بال حضررة وكان فريده زمانه علماً وتخلقاً وتواضعاً⁽²⁰⁾ قال عنه ا بن الخطيب في الإحاطة :

(19) المقري ، أزهار الرياض ، ج1/ ، ص 205 .

(20) المقري ، نفح الطيب ، ج5/ص 507 كذلك ابن الخطيب ، الكتيبة ، ص193.

((هو أول أستاذ قرأت عليه القرآن والعربية والأدب وله تأليف في فنون الشعر والنثر))⁽²¹⁾ .

ب- ابن ليون : (ت 740 هـ / 1339 م)

هو الشيخ أبو عثمان سعيد بن أحمد بن ليون ، وهذا الشيخ كما جاء في الكتيبة الكامنة ((مولع بالتأليف والتدوين ، متميز بذلك في بلده ، يلخص ويوجز ، وكان شديد التخلق متعلقاً بأهداب الفنون أشد التعلق))⁽²²⁾ .

فهو من أكابر الأئمة الذين أفرغوا جهدهم في الزهد والعلم والنصح ، وله تصانيف كثيرة تزيد عن المائة منها (كمال الحافظ وجمال الالفاظ في الحكم والوصايا والمواعظ ، نفح السحر في اختصار روح السحر وروح الشعر ، وأنداء الديق في الوصايا والمواعظ والحكم ، الأبيات المهذبة في المعاني المقربة)⁽²³⁾ .. وغيرها .

هؤلاء أبرز من أخذ عنهم لسان الدين ، سواء من أهل المغرب أم الأندلس ، عدة فنون ومعارف مختلفة .

ج- ابن شبرين : (674 – 747 هـ / 1275 - 1346 م) .

من شيوخ لسان الدين ، القاضي الأديب ، أبوبكر محمد بن أحمد بن محمد بن شبرين⁽²⁴⁾ ، الذي قال عنه تلميذه في الكتيبة الكامنة :

((خاتمة المحسنين ، في هذه السنين ، إن خط نزل ابن مقلة عن درجته و انحط ، وأنكر البري والقط ، وإن نظم أو نثر ، تبعت البلغاء ذلك الأثر ، وإن تكلم أنصت

(21) ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج2/ ، ص301

(22) ابن الخطيب ، الكتيبة الكامنة ، ص 86 .

(23) المقري ، نفح الطيب ، ج 5 / ص 543 – 544 .

(24) ابن الخطيب ، الكتيبة الكامنة ، ص104 .

الحفل لاستماعه ... قدم وذو الوزارتين ابن الحكيم يدبر ملكها))⁽²⁵⁾ وله عدة قصائد وأبيات ذكرها ابن الخطيب في الكتيبة الكامنة.

د- ابن الجياب : (673-749هـ / 127-1348م)

وهو الشيخ الرئيس أبو الحسن علي بن محمد بن سليمان بن علي بن سليمان بن الجياب الأنصاري ، المعروف بابن الجياب .⁽²⁶⁾

وهو كاتب وشاعر من أشهر كتاب الدولة النصرانية ، وصار يترقى في المناصب حتى وصل إلى كتاب الحضرة ، وكان راوية ومحققاً في كثير من العلوم والفنون ، وكان قائماً على العربية ، إماماً في الفرائض ، والحساب ، عارفاً بالقراءات، متبحراً في الأدب ، والتاريخ ، ومشاركاً في التصوف.⁽²⁷⁾

وهو شيخ طلبة الأندلس وفقهه في علوم الإسلام ، تتلمذ عليه ابن الخطيب وأخذ عنه طريقته.⁽²⁸⁾

وكان ابن الجياب يشغل منصب وزير الدولة ، وتقلب في ديوان الإنشاء حتى ظفر برئاسته وكان من أعوانه ، عبدالله والد لسان الدين ، ولما استشهد هدى عبدالله في وقعة طريف ، خلفه ابنه لسان الدين في خدمة القصر ، وأصبح أميناً لأستاذه ابن الجياب ، وورث خطته (وظيفته) وخطه الكتابة لملوك بني نصر.⁽²⁹⁾

(25) ابن الخطيب ، الكتيبة الكامنة ، ص166-167.

(26) ابن الخطيب ، الكتيبة الكامنة ، ص183 ، كذلك الإحاطة ، ج 1 / ص330.

(27) محمد العريس ، موسوعة شعراء العصر الأندلسي ، (بيروت ، دار اليوسف 1426 هـ / 2005 م) ، ص65.

(28) ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج1/، ص330.

(29) ابن الأحمر ، نثر فرائد الجمال ، ص55.

فقد تلقى ا بن الخطيب في ديوان الإنشاء على يد أستاذه ا بن الجياب ، أرفع أساليب النظم و النثر⁽³⁰⁾، وقد قال عنه ابن الخطيب في ترجمته في الكتيبة الكامنة :

((صدر الصدور الجلة ، وعلم من أعلام الملة ، شيخ الكتابة وبنيتها ، ومتولي أيام خدمتها وسنيها ... ، اعتمدته ا لرئاسة فناءً بها على حبل ذراعه ، واستعانت به السياسة ...))⁽³¹⁾ .

لقد توفي ا بن الجياب بالطاعون الجارف ليلة الأربعاء 23 شوال سنة (749 هـ / 1348م) ، ورثاه ا بن الخطيب في قصيدة طويلة⁽³²⁾ ، وبعد وفاته تولى ا بن الخطيب ديوان الإنشاء و أصبح وزير الدولة وقام به ا خير القيام.⁽³³⁾

هـ- الحضرمي : (676-749هـ / 1277-1348م)

هو الكاتب البارع العلامة النحوي اللغوي أب و محمد عبدالمهيمن بن محمد الحضرمي السبتي ، وهو إمام الحديث والعربية⁽³⁴⁾ ، وهو صاحب القلم الأعلى بالمغرب ، وكاتب السلطان أبي الحسن المريني وصاحب علامته وكان يعد من المُحدّثين والنحاة بالمغرب ، وعنه أخذ عبدالرحمن بن خلدون وغيره⁽³⁵⁾ ((نشأ بسببته بين علم يقيده ، وفخر يُشيدُه ، استقلت بالسياسة يديه ، وكان عين الملك التي بها يُبصر وله في الآداب الراية الخافقة والعقود المتناسقة))⁽³⁶⁾ وقد كان ذا سعد وسؤدد ،

(30) ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج 1 /ص36

(31) ابن الخطيب ، الكتيبة الكامنة ، ص183.

(32) المقرئ ، نفح الطيب ، ج5/445.

(33) العبادي ، لسان الدين بن الخطيب ، ، ص346.

(34) المقرئ ، نفح الطيب ، ج5/240.

(35) عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون (ت 808 هـ / 1406م) ، التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً ،

تحقيق: محمد الطنجي ، (لجنة التأليف والترجمة والنشر ، دم.) ، 1371هـ/1951م) ، ص 20 ، 38.

(36) المقرئ ، نفح الطيب ، ج 5 /ص 465 .

عالي الهمة ، لا يحتمل الظلم ولا احتقار العلم ، وقد توفى بتونس بوباء الطاعون سنة (749هـ / 1348م) .

و- **الوادي آشي^(*) : (673-779 هـ / 1274-1378م) .**

هو الإمام الرحالة شمس الدين أبو عبد الله محمد بن جابر الوادي آشي ، ولد بتونس سنة (673هـ)⁽³⁷⁾ ، و لا نعلم شيئاً عن نشأته العلمية غير أنه كان يصاحب العلماء ويقراً عليهم القرآن ، ويهتم بالأخذ عن الوافدين إلى تونس ، كما كان يقرض الشعر⁽³⁸⁾ ، ورحل إلى المشرق ودخل مصر والشام ، لغرض التجارة والتعليم معاً ، ودخل غرناطة عام (726هـ / 1325م) ، بعد رحلته إلى المشرق⁽³⁹⁾ .

وكان الوادي آشي محدثاً حاملاً ومقرئاً ضابطاً ، والحديث والقراءات هما العلمان اللذان اشتهر بهما شرقاً وغرباً ، وكان نحوياً لغوياً ، راوية لأشعار مشائخه⁽⁴⁰⁾ .

وكان له أمداح نبوية كثيرة ومؤلفات منها : (شرح ألفية ابن مالك – الأربعون البلدانية) وغيرها وتوفى الوادي آشي بتونس سنة (779هـ / 1378م)⁽⁴¹⁾ .

(*) الوادي آشي نسبة إلى وادي آشي بالأندلس من كورة ألبيرة ، ينظر الخريطة بالملحق رقم (1) :

(37) المقرئ ، نفح الطيب ، ج 5 / 200 .

(38) محمد بن جابر الوادي آشي ، (749هـ / 1348م) ، برنامج الوادي آشي ، تحقيق : محمد محفوظ ، ط3 ،

دار الغرب الإسلامي، بيروت 1403هـ / 1982) ، ص 10 .

(39) المقرئ ، نفح الطيب ، ج 5 / 664 .

(40) الوادي آشي ، ص 18

(41) المصدر السابق، ص 18

ز- ابن هذيل : (ت 753 هـ / 1352م)

هو الشاعر والطبيب ، يحيى بن أحمد بن هذيل التجيبي أبو زكريا الشهير بابن هذيل⁽⁴²⁾ ، شاعر مبدع ، وطبيب مشهور ، وله معرفة في الفلسفة والحساب والهندسة والأصول والأدب ، قضى معظم حياته مشغولاً بنفسه غير مبالٍ بالناس ، خدم أواخر حياته السلطان ، وجلس بالمدرسة بغرناطة يُدرّس الأصول والفرائض والطب⁽⁴³⁾ .
وقد اختص ابن الخطيب بصحبته ولازمه حتى آخر حياته ، وأخذ عنه العلوم الفلسفية والطب ، وقد ألف ابن هذيل عدة كتب منها : (الاختبار والاعتبار في الطب) و (التذكرة في الطب) .

وقد توفي في الخامس من ذي القعدة سنة (753 هـ / 1352م) ، وتولى ابن الخطيب دفنه بباب ألبيرة في غرناطة بجوار زوجته تنفيذاً لوصيته⁽⁴⁴⁾ .

وكان ابن الخطيب يعز إستاذه ابن هذيل إعزازاً شديداً ، وعندما أصيب ابن هذيل بالفالج أحضره - ابن الخطيب - إلى منزله وقام برعايته إلى أن وافته المنية - على خلاف ما وجده من تلاميذه - وكان قبل ذلك قد أملى على تلميذه ابن الخطيب أبياتاً جاء فيها :

إذا ميتٌ فادفني حذاءَ حليّاتي يُخالطُ عظمي في الثرابِ عظامها

لعلَّ إله العرش يجبرُ صدَّ عتي فيُعَلِّي مقامي عندهُ ومقامها⁽⁴⁵⁾

(42) المقري ، نفح الطيب ، ج 5 / ص 44 .

(43) ابن الخطيب ، الإحاطة ، ص 459 .

(44) محمد العربي الخطابي ، الطب و الأطباء في الأندلس ، (بيروت ، دار الغرب الإسلامي 1409 هـ /

1988م) ، ج 2 / ص 194 .

(45) المقري ، نفح الطيب ، ج 5 / ص 497 .

ح- ابن الفخار : (ت 754هـ / 1353 م) .

ومن شيوخ لسان الدين ، الأ ستاذ المحقق العلامة الكبير ، النحوي الشهير ،
أبو عبد الله محمد بن علي الفخار ، قال عنه ابن الخطيب في الكتيبة الكامنة :
((رجل سليم الباطن ، متفق على فضله وورعه من الرا حل والقاطن ، نافع التعليم ،
متلقاة دعوى معرفته بالتسليم ...)) (46) .

فقد كان شيخ النحاة بالأندلس دون منازع ، وأستاذ الجماعة في غرناطة .

وأخذ عنه خلق كثير ، وقد لازمه ابن الخطيب وأخذ عنه قراءة العربية والفقهاء
والتفسير (47) ومن تصانيفه (تحريم الشطرنج - تفسير سورة الفاتحة - شرح كتاب
سيبويه البصري ... وغيرها (48)) .

وتوفى ليلة الإثنين ثاني عشر من رجب سنة (754هـ / 1353م) (49) .

ط- ابن جزي: (715 - 758هـ / 1315 - 1356م)

هو أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن يحيى بن عبد الرحمن بن
يوسف بن سعيد بن جزي الكلبى ، من أهل غرناطة ومن ذوى الأصالة والنزاهة ، وله
مشاركة حسنة في الفنون الفقهية والعربية حافظاً قائماً على التدريس .
قال ابن الخطيب عنه ((شمس في سماء البلاغة بازغة وحجة على بقاء هذه الفطرة
العربية بالمغرب بالغة ، ونعمة على هذه الطريقة سابعة ، ونادرة فيها ونابعة ...)) (50)

(46) ابن الخطيب ، الكتيبة الكامنة ، ص 70 - 71 .

(47) المقرئ ، نفح الطيب ، ج 5 / 355 .

(48) خليفة مصطفى بن عبد الله القسطنطيني حاجي (ت 1058هـ / 1648م) ، كشف الظنون عن أسامي الكتب

والفنون ، (بيروت ، دار الفكر 1415 هـ / 1994 م) ، ج 6 / 127 .

(49) المقرئ ، نفح الطيب ، ج 5 / 383 .

(50) ابن الخطيب ، الكتيبة الكامنة ، ص 223 .

وهو من كتاب الدولتين ، النصرية في غرناطة والمرينية في فاس ، أديب وشاعر استكتبه السلطان أبو الحجاج يوسف بن الأحمر ثم انتقل إلى المغرب وخدم السلطان أبا عنان المريني .

ومن تأليفه (تاريخ غرناطة) الذي أفا د منه لسان الدين⁽⁵¹⁾ ، وكانت وفاته سنة (758هـ / 1356 م) كما ذكره ابن الخطيب في الإحاطة⁽⁵²⁾ .

ي - الشريف السبتي : (697 – 760 هـ / 1297 – 1358 م)

وهو قاضى الجماعة أبو القاسم محمد بن أحمد بن محمد الحسيني السبتي ، وقد كان آية الله الباهرة في العربية والبيان والأدب ، وهو رئيس العلوم اللسانية بالأندلس⁽⁵³⁾ ، قال عنه تلميذه ابن الخطيب : ((هو الطود الأشم ، والروض الذي له المجتلى والمشم))⁽⁵⁴⁾ ، وهو أستاذ ابن الخطيب وابن زمرك – تلميذ ابن الخطيب – وقد أدى دوراً مهماً لسلطان غرناطة في القصر المريني بفاس بزيارات عدة ، وله كتاب (رفع الحجب المستورة في محاسن المقصورة) وهو شرح لبعض قصائد مراثي الأندلس .

وله شعر مُدَوّن سمّاه (جهد المقلّ)⁽⁵⁵⁾ ، أما وفاته فكانت سنة (760 هـ /

1358م) ، وكان إماماً في الحديث والفقہ والنحو ، وهو ممن يحصل الفخر بلقائه .

(51) ابن الأحمر ، نثير فرائد الجمال ، ص 113 .

(52) ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج 1 / ص 108 .

(53) المقرئ ، نفح الطيب ، ج 5 / ص 189 .

(54) ابن الخطيب ، الكتيبة الكامنة ، ص 301 .

(55) العبادي ، تاريخ المغرب والأندلس ، ص 375 .

ك- المَقْرِي : (ت 761هـ / 1359 م)

هو محمد بن محمد بن أحمد بن أبي بكر بن يحيى بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن علي القرشي المَقْرِي⁽⁵⁶⁾ ، وهو من أكابر شيوخ ابن الخطيب ، فهو قاضي الجماعة بفاس ، أيام السلطان أبي عنان المريني ، دخل الأندلس ، وعزم الإقامة بها أوائل جمادى الآخر من سنة سبع وخمسين وسبعمائة⁽⁵⁷⁾.

وقد اشتهر بالاجتهاد والحفظ وحسن الاطلاع والنزاهة والصدق في القول مع العمل ، حريص على العبادة ، مُكَب على النظر والدرس والقراءة ، ويقوم أحسن القيام على العربية والفقه والتفسير ، ويحفظ الحديث وله معرفة بالتاريخ والأخبار والأدب ، ويكتب الشعر ببراعة⁽⁵⁸⁾.

قال عنه تلميذه ابن الخطيب في الإحاطة : ((حضرتُ بعض مجالسه للحكم فرأيت من صبره على اللد وتأنية للحجج ورفقة بالخصوم ما قضيت منه العجب))⁽⁵⁹⁾.

وقد كان للمقري مؤلفات كثيرة منها : (الطرف والتحف) ، كتاب (القواعد) الذي اشتمل على ألف ومائتي مسألة فقهية ، (واختصار المحصل) وغيرها الكثير⁽⁶⁰⁾.

والشيخ المقري هو جد مؤلف كتاب (نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب) الشيخ أحمد بن محمد المقري التلمساني

(56) المقري ، نفح الطيب ، ج 5/ 103 .

(57) ابن الخطيب ، ریحانة الكتاب ونجعة المنتاب ، تحقيق : محمد عبد الله عنان ، (القاهرة ، مكتبة الخانجي ، 1400هـ / 1980) ، ص 353 .

(58) المقري ، نفح الطيب ، ج 5 / 208 – 209 .

(59) ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج 1 / ص 136 .

(60) المقري ، نفح الطيب ، ج 5 / ص 284 – 285 .

(ت1041هـ، 1631م) ، وقد أُفرد له في كتابه هذا مساحة واسعة تحدث فيها عن حياته وشعره كما ذكر شيوخه⁽⁶¹⁾.

ل- أبو محمد عبد الخالق : (ت بعد 761هـ / 1359 م)

هو أبو محمد عبد الخالق بن سعيد بن محمد ، وهو قاضي مكناسة ، لقيه ابن الخطيب سنة (760هـ / 1358م) ، واستفاد منه في الفقه والأصول واللغة وكان من أهل المعرفة والفصاحة⁽⁶²⁾ وكان حياً حتى سنة (761هـ / 1359 م) .

م- ابن الحاج البلقيي : (ت 771 هـ / 1369 م) .

هو الشيخ القاضي أبو البركات محمد بن أبي بكر محمد بن إبراهيم بن الحاج البلقيي السلمي⁽⁶³⁾ من أشياخ لسان الدين ، وكان أحد رجال الكمال علماً ومجداً وسؤدداً وموروثاً وهو من بيت كبير معروف علماً وصلاًحاً ونزاهة وزهداً⁽⁶⁴⁾ .

وقد نشأ ابن الحاج البلقيي في مدينة المرية وتلقى علومه فيها وفي مدن الأندلس الأخرى ، ورحل إلى المغرب أكثر من رحلة قاصداً العلم والعلماء ، ووصل حتى بجاية وعاد إلى الأندلس فولى القضاء في عدد من بلدانه كالمريّة ومالقة⁽⁶⁵⁾ .

كان محدثاً حافظاً متفنناً حسن التلاوة جميل النغمة بالقراءة مع خشوع وبكاء ، صدرأ في مجلس القضاء ، وكان راوية وشاعراً وأديباً بارعاً وخطيباً مُصنفاً⁽⁶⁶⁾ .

(61) المقرئ ، نفح الطيب ، ج 5 / ص 203 ، 341 .

(62) أحمد بن أحمد بن عمر التنبكتي (ت 1032 هـ / 1622م) ، نيل الابتهاج بتطريز الديباج ، تقديم : عبد الحميد

الهرامة ، (طرابلس ، ليبيا ، كلية الدعوة الإسلامية 1410 هـ / 1989 م) ج 1 / 64

(63) ابن الخطيب ، الكتبية الكامنة ، ص 127 .

(64) المقرئ ، نفح الطيب ، ج 5 / ص 471 ، 474 .

(65) العرييس ، شعراء العصر العباسي ، ص 122 .

(66) التنبكتي ، نيل الابتهاج ، ج 1 / ص 428 .

وقد قال عنه ابن الخطيب في الكتيبة الكامنة : ((هو الوفاء ، وفيه للصدر شفاء ، تحفة الدهر التي يقل لها الكفاء ولو لم يكن في هذه الطبقة الجليلة إلا هذا الرجل لكان كافياً))⁽⁶⁷⁾.

وكان رحمه الله شاعراً بارعاً ، وقد جمع شعراً وسماه (العذب والأجاج من كلام أبي البركات بن الحاج)⁽⁶⁸⁾، وله تصانيف متعددة الأغراض منها : (الإفصاح فيمن ذكر بالأندلس بالصلاح ، و تاريخ المرية المرجع بالدرك على من أنكر وقوع المشترك، و حركة الدخولية في المسألة المالقية ، و المؤتمر على أبناء الزمن) وغيرها⁽⁶⁹⁾ ، وقد أفاد طلبة العلم لديه وكان أصحابه وتلاميذه يُقدرونه غاية التقدير والتبجيل⁽⁷⁰⁾.

وتوفى البلقيني في المرية في شوال سنة (771 هـ / 1369 م).

ن- ابن مرزوق الخطيب : (710-781 هـ / 1310-1379 م)

هو محمد بن أحمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق العُجيسي التلمساني ، ويلقب - من الألقاب المشرقية - بشمس الدين ، وهو من أهل تلمسان ، وكان مولده سنة (710 هـ / 1310 م) ، وقد رحل مع والده إلى المشرق إلى بلاد الحرمين ثم رجع إلى القاهرة ، وأقام به طالب العلم والدراسة ، ثم رجع إلى المغرب وتولى الخطابة في مسجدها⁽⁷¹⁾.

(67) ابن الخطيب ، الكتيبة الكامنة ، ص 127 ، 134 .

(68) المقري ، نفح الطيب ، ج 2 / 473 .

(69) حاجي خليفة ، كشف الظنون ، ج 6 / ص 132 .

(70) المقري ، نفح الطيب ، ج 5 / ص 487 .

(71) ابن خلدون ، التعريف ، ص 396 .

ذكره ابن الخطيب في الإحاطة قائلاً : ((هذا الرجل من طُرفِ دهره ظرفاً وخصوصية ولطافة ، حسن اللقاء غاص المنزل بالطلبة ، مُنقاد للدعوة ، عذب التلاوة متسع الر واية ، مشارك في فنون من أصول وفر وع وتفسير ، يكتب ويشعر ويقيد ويؤلف)) (72).

قدم الأندلس أواخر سنة (748 هـ / 1347 م) واستقر بها زمن سلطانها أبي الحجاج ، الذي قربه إليه واستعمله على الخطبة بجامع الحمراء ، وأقعه للإقراء بالمدرسة في غرناطة ، ولم يزل هناك حتى استدعاه سلطان المغرب أبو عنان المريني وعده من أكابر مجلسه (73) .

ثم رحل إلى تونس وأكرم إكراماً شديداً ، وولي الخطابة بجامع السلطان ، والتدريس بأكبر المدارس ، ثم رحل إلى القاهرة فتولى الوظائف العلمية ، والقضاء ، ملازماً للتدريس (74) .

وهناك لقي حتفه ودفن سنة (781 هـ / 1379 م) (75) وقد قال ابن الخطيب في حقه وتعظيماً لأستاذه : ((سيدي الذي إليه انقطاعي وانحياشي ، وملاذي ومَلْجئي الذي يَسِّرُ خلاصي ... ومولى هذا الصنف العلمي ولا أحاشي ، كتبه صنيعُ نعمتكم الخالصة الحرة ، ومسترق فضلكم الذي تألقت منه في ليل الخطوب الغرة ...)) (76)

(72) المقري ، نفح الطيب ، ج 5 / 391 .

(73) ابن خلدون ، التعريف ، ص 398 .

(74) شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد ابن حجر العسقلاني (ت 852 هـ / 1448م) الذُرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، (الهند ، دار المعارف العثمانية 1350 هـ / 1931م) ج 3 / 360 .

(75) أبو العباس أحمد بن حسن بن علي بن الخطيب ابن قنذ (ت 810 هـ / 1407م) ، الوفيات ، تحقيق : عادل نويهض ، (بيروت ، منشورات المكتبة التجارية 1391 هـ / 1971 م) ، ص 373 .

(76) المقري ، نفح الطيب ، ج 5 / ص 405 .

من هذا النص يلحظ الفضل الكبير الذي تركه ابن مرزوق لتلميذه ابن الخطيب الذي لم يُنكره ، وهو دليل واضح على وفاء التلميذ لإستأذه ! وقد ترك ابن مرزوق تصانيف كثيرة منها : (إزالة الحاجب عن فروع ابن الحاجب) ، و (تيسير المرام في شرح عمدة الأحكام في الحديث) ، و (تمهيد المسالك إلى شرح ألفية ابن مالك) (77).

س- أبو سعيد بن لب : (701 هـ - 782 هـ / 1301 - 1380 م)

هو العلامة فرج بن قاسم بن أحمد بن لب التغلبي الغرناطي أبو سعيد ، وهو شيخ الشيوخ بالأندلس ، إليه انتهت رئاسة الفتوى في العلوم ، وكان أقرانه يقفون عند ما يُشير إليه ، وهو من أكابر علماء المالكية . (78)

قال عنه تلميذه ابن الخطيب في الإحاطة : ((هو من أهل الخير والطهارة والذكاء والديانة وحسن الخلق ، وحامل لواء التحصيل وعليه مدار الشورى وإليه مرجع الفتوى ، لقيامه على الفقه وغازاة علمه وحفظه ، إلى المعرفة بالعربية واللغة ، ومعرفة التوثيق والقيام على القراءات والتبريز في التفسير ، وأقرأ بالمدرسة النصرية ، معظماً عند الخاصة والعامة ، قعد للتدريس ببلده على وفور الشيوخ ، وولى الخطابة بالجامع ...)) (79).

ثم تغيرت صورة ابن لب لدى ابن الخطيب خدمة وغمزه في كتابه الكتبية الكامنة لأنه ضمن وقف ضده في محنته (80).

(77) حاجي خليفة ، كشف الظنون ، ج 6 / ص 136 .

(78) المقرئ ، نفع الطيب ، ج 5 / ص 513 .

(79) ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج 2 / 356 ، وقد تغيرت صورة ابن لب لدى لسان الدين بين تأليفه الإحاطة والكتبية الكامنة ، فقد أثنى عليه في الإحاطة ج 2 / ص 356 ، ثم ذمه في الكتبية الكامنة ، ص 67 .

(80) ابن الخطيب ، الكتبية الكامنة ، ص 67 .

وتوفى ليلة السبت 17 من ذي الحجة سنة (782 هـ / 1380م) ، ومن تصانيفه (شرح جُمل الزجاجي - و شرح تصريف التسهيل - وكتاب ينبوع عين الثره في تفريع مسألة الإمامة بالأجرة) وغيرها⁽⁸¹⁾ .

ع- الوثشريسى⁽⁸²⁾ :

هو أبو علي الحسن بن عثمان بن عطية الوثشريسى ، وهو ممن لقيهم لسان الدين بمكناسة، كان فقيهاً عدلاً ، من أهل الفضل و العناية بفروع الفقه ، ويقرض الشعر⁽⁸³⁾ .

قال عنه ابن الأحمر ((هو الشيخ المفتي المدرس القاضي الفرضي الأديب ، مولده في حدود سنة (724 هـ / 1323م))⁽⁸⁴⁾ ، ولا نعلم شيئاً عن وفاته .

(81) المقرئ ، نفح الطيب ، ج 5 / ص 513 - 514 .

(82) لم أجد تاريخ وفاته في أغلب المصادر خاصة المتعلقة بالوفيات

(83) المقرئ ، نفح الطيب ، ج 5 / ص 352 .

(84) المقرئ ، نفح الطيب ، ص 352.

خامساً - تلاميذه :

لا شك أنه بعد أن بلغ ابن الخطيب درجة التفوق في الفن والمعرفة أن تخرج على يديه من تلقوا العلم عنده ، ولكن من الغرابة أن يكون من بينهم من كانوا سبباً في تشويه سمعته واستجابة ضده ومن ثم قتله ، ومن أبرزهم :-

1- ابن زمرك : (733 هـ - 796 / 1332 - 1393 م)

هو محمد بن يوسف بن أحمد بن محمد بن يوسف الصريحي ، يُكنى أبا عبد الله ، ويُعرف بابن زمرك⁽⁸⁵⁾ .

وهو ينحدر من أسرة فقيرة من شرقي الأندلس ، ثم انتقلت إلى غرناطة حيث ولد سنة (733 هـ / 1332 م)⁽⁸⁶⁾ ، وقد نشأ على طلب العلم ، وداوم على القراءة ، ودخل المدرسة اليوسفية ، وصار تلميذاً لألمع طبقة من علماء غرناطة – الذين منهم لسان الدين – ودرس النحو والفقه والأصول⁽⁸⁷⁾ ، وجاء عنه في النفاح ((هو صدر من صدور طلبة الأندلس وأفراد نُجبانها ، عذب الفكاهة حلو المجالسة ، عظيم الانطباع شره المذاكرة فطن بالمعارض حاضر الجواب ، شعلة من شعل الذكاء وأعمل الرحلة في طلب العلم والازدياد ، فترقى الكتابة عند ولد السلطان أمير المسلمين بالمغرب أبي سالم إبراهيم))⁽⁸⁸⁾ ، فقد عاش فترة في المغرب ودرس على يدي شيخه ابن مرزوق (ت 781 هـ / 1379 م) ، فقدمه أستاذه ابن مرزوق إلى أبي سالم إبراهيم ابن سلطان المغرب أبي الحسن ، فتقلد منصب الكتابة عنده ، ثم لحق

(85) ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج 2 / 221 ، 240 ، كذلك الكتيبة ، ص 282 .

(86) المقرئ ، نفاح الطيب ، ج 7 / 145 .

(87) العريسي ، شعراء العصر الأندلسي ، ص 146 .

(88) المقرئ ، نفاح الطيب ، ج 7 / ص 146 .

لخدمة الدولة النصرية لدى سلطانها (محمد الخامس الغني بالله) وبإشراف أستاذه لسان الدين⁽⁸⁹⁾ ، فاضطلع بالوظيفة خطأ وإِ نشاءً وتفناً فاشتهر فضله وصدرت فيه أمداح كثيرة⁽⁹⁰⁾ . وقد نوه ابن الخطيب بذكائه وخلالِهِ ، وتفوقه في الدرس والأدب ، وأثنى على شعره⁽⁹¹⁾ ، كما قام هو بمدح ابن الخطيب في قصائد عدة ، أشاد فيها بجلال قدره ويعترف بفضله ، وبوأه ذروة العز والشرف ، ومع ذلك كان ضالماً مع خصومه ، وأول الساعين إلى هلاكه⁽⁹²⁾ .

وبقى ابن زمرك في خدمة بني الأحمر سبعاً وثلاثين سنة ، يصرف الأمور ويدبر الملك ، وسيطرته نافذة ، ومكانته متزايدة ، وكان يذهب في السفارة بين الملوك ويعقد الصلح ويُفاوض الإسبان⁽⁹³⁾ ، ولما توفي السلطان الغني بالله وخلفه ابنه يوسف الثاني، تغيرت طباع ابن زمرك و أنكر فضل أولي نعمته⁽⁹⁴⁾ ، فقد استخف بأولياء الأمور من حجاب الدولة ، والرد عليهم وبث الفتن بينهم ، حتى أنه سعى وراء أستاذه ابن الخطيب ، واتهمه بالإلحاد والزندقة حتى سجنه سلطان المغرب – عندما هرب إليه ابن الخطيب – ومن ثم قتله⁽⁹⁵⁾ .

وقد وصفه ابن الخطيب في الكتيبة الكامنة ناقداً – بعد أن مدحه في الإحاطة – بقوله : ((هذا الرُّجِيلُ والتصغير على أصله ، وإن لم يعب السهم صغر نصله ،

(89) محمد بن يوسف الصريحي الغرناطي (ت 796 هـ / 1393 م) ، ديوان ابن زمرك ، قدمه : أحمد سالم

الحمصي ، بيروت ، المكتبة العصرية 1418 هـ / 1998 م) ، ص 9 ، المقدمة .

(90) ابن حجر العسقلاني ، الدرر الكامنة ، ج 2 / ص 222 .

(91) ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج 2 / ص 222 .

(92) إبراهيم قطان ، ابن زمرك ، مجلة العربي ، العدد 46 ، الكويت وزارة الإرشاد ، 1382 هـ / 1962 م) ،

ص 110 .

(93) المرجع السابق ، ص 111 .

(94) الغرناطي ، الديوان ، ص 10 .

(95) قطان ، ابن زمرك ، ص 110 – 111 .

مخلوق من مكيدة وحذر ، .. خبيث إن شكر ، خدع ومكر ، ودس في الصفو العكر
فأنا المعتبر إذ اصطنعته وروجته ، ولغيري ما احوجته ((⁹⁶).

و من خلال هذا النص نرى أنه قد أساء معاملة أستاذه ابن الخطيب لذا يعاتب ويلوم نفسه على صنيعه معه .

واستمر ، ابن زمرك هكذا ، وهو يثير حوله الخصوم والبغض والأحقاد حتى تغلب عليه أعداؤه ، وألبوا عليه السلطان ، فهاجمه جماعة في منزله ليلاً فقتلوه وولديه وخدمه شر قتله ، أمام أهله وبناته⁽⁹⁷⁾ وتوفى ابن زمرك سنة (796 هـ / 1393م) .

2- ابن فركون :

هو أحمد بن سليمان بن محمد بن أحمد القرشي الـ معروف بابن فركون ، ولد في ربيع الآخر سنة (747 هـ / 1346م) ، قال عنه لسان الدين في الإحاطة بمدحه :
((شعلة من شعل الذكاء والإدراك ، ومجموع خلال حميدة على الحداثة ، طالب نبيل ، مدرك ، نجيب ، بَرٌّ - أي تفوق - أقرانه كفاية ،))⁽⁹⁸⁾ .

ويبدو أن ابن الخطيب كان معجباً به فقد بالغ في مدحه ، ولكن نسي ابن فركون فضل أستاذه وأنكره ، فأعاد ابن الخطيب تقويمه في الكتيبة حيث قال : ((جرو محقور ، وفي جلده كلب عقور ولسان ناقور ، وشراره قد حتها شرور ، أخرق نشأ من صلف ، ورمى من الوضاعة والدناءة بكلف))⁽⁹⁹⁾ ويقول ابن الخطيب بعد أن علمته ودرسته ((فلما ظهر أيده واستقام صيده ، انصرف إلي كيدُهُ ، فلم ألق شراً من

(96) ابن الخطيب ، الكتيبة الكامنة ، ص 283 .

(97) المقرئ ، نفع الطيب ، ج 7 / 162 ، 170 .

(98) ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج 1 / ص 228 .

(99) ابن الخطيب ، الكتيبة الكامنة ، ص 305 .

لهنته المجلبة ، وعضته الكلبة ، فانكر المعروف ، ونسي الظرف والمظروف
وعض عرقوبي فأدمى (((100)

وهذا ما ينطبق عليه قول الشاعر العربي :

وأعلمه الرماية كلَّ يوم فلما اشنَّد ساعدهُ رماني
وكم علمته نظم القوافي فلما قال قافيةً هجاني

ومن خلال هذا النص يظهر أن ابن فركون قد بالغ في الإساءة إلى أستاذه وشارك مع
الذين سعوا ضده وشوهوا سمعته .

ومن تلاميذ ابن الخطيب الطبيب العالم :

3- ابن المهنا :

وهو شارح ألفية ابن سينا في الطب ، كما نقل عن لسان الدين كثيراً ، واعتمد
عليه في أمور الطب. (101)

4- ابن جُزىّ الكلبى :

وهو القاضي الكاتب الع الم أبوبكر بن جُزى الكلبى ، وبيت بني جزي بيت
مشهور بالمغرب والأندلس ، وكان والده أحد شيوخ لسان الدين بن الخطيب وهو
(أبو القاسم بن جُزى). (102)

(100) ابن الخطيب ، الكتيبة الكامنة ، ص 306 .

(101) المقرئ ، نفح الطيب ، ج 7 / ص 281.

(102) المقرئ ، نفح الطيب ، ج 7 / ص 282 .

5- المحاربي :

وهو القاضي الكاتب أبو محمد عطية بن يحيى بن عبد الله بن طلعة المحاربي الذي ولد سنة (709 هـ / 1309م) ، وهو كاتب الإنشاء بالباب السلطاني ، بارع الخط ، جيد القريحة ، نشيط البيان ، خطيب ناظم ناثر ، قرأ بغرناطة ، وولي الخطابة بالمسجد الأعظم والقضاء سنتين.⁽¹⁰³⁾

6- أبو عبدالله الشريشي :

هو من تلاميذ ابن الخطيب ، وقد كلفه ، ابن الخطيب بنقل الإحاطة من مبيضتها لاشتغال ابن الخطيب بأمر المملكة.⁽¹⁰⁴⁾

(103) المقرئ ، نفع الطيب ، ج 7 / ص 282 .

(104) ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج 1 / ص 82 .

الفصل الثالث

حياته الإدارية والسياسية

أولاً : علاقته بسلاطين بني نصر .

ثانياً : توليه الوزارة .

ثالثاً : نشاطه السياسي .

أولاً : علاقته بسلاطين بني نصر :-

عاش ابن الخطيب في بيت علم ومجد ورئاسة ، وكان لأسرته الغنية المثقفة صلات بالبيوت الشهيرة في غرناطة ، وهكذا نشأ ابن الخطيب في بيئة مترفة ، ونهل من العلم في حدود ما أتاحت له علوم زمانه ، وخلف والده عبد الله ، الذي كان يشغل يومئذ مركزاً في القصر ، في أيام السلطان أبي الوليد إسماعيل (713-725م/1313-1325م)⁽¹⁾ ، فلما استشهد أبوه كان ابن الخطيب في مقتبل العمر وهذا لم يحل دون خدمته للسلطان ، فقد تقدم في الخدمة السلطانية ، وخدم في ديوان الإنشاء مع الرئيس ابن الجياب ، وتأثر ابن الخطيب منذ نعومة أظفاره بالأفق السلطاني ، الذي عاش فيه والده وتطلع إلى خوضه والعمل فيه⁽²⁾ ، وكان حينئذ في الثامنة والعشرين من عمره ، حيث تولى أمانة السر لأستاذه الرئيس ابن الجياب ، وقد تمتع ابن الخطيب بمكانة رفيعة لدى سلاطين بني الأحمر وما ساعده على إحراز هذه المكانة ، أن مواهبه تفتحت في تلك الفترة ، ولفتت الأنظار بقوتها وروعها ، ورشحته ليكون خلفاً لأستاذه .

فقد اشتهر بادئ أمره بنظم الشعر فأنشأ القصائد البليغة ، وإنشاد المدائح في السلطان أبي الحجاج يوسف الذي قربه منه وجعله في عداد كتابه ، ثم اجتباه وأضاف إليه الوزارة وفوض إليه جميع شؤون المملكة ، وما برح على هذه الخطوة حتى توفي سلطانه ، وتولى ابنه مكانه فأقره على ما هو عليه⁽³⁾ .

(1) عنان ، لسان الدين بن الخطيب ، ص 34 .

(2) المرجع السابق ، ص 35 .

(3) أحمد الإسكندري ، ومصطفى عناني ، الوسيط في الأدب العربي ، ط17 ، (القاهرة ، دار المعارف ، القاهرة د ، ت) ص 299 .

وبهذ ا فقد كسب ابن الخطيب ثقة السلطان فقربه من مجلسه ، وأعطاه الكثير من النعم كما أصبح أثيراً لديه ، مودعاً إياه أمانة سرّه وكتابته ، لنجاحه في مكاتباته وسفاراته. (4) حيث قال ابن الخطيب عن هذه المكانة : ((..... فقلدني السلطان سرّه ، ولما يستكمل الشباب ويجتمع السن ، معززة بالقيادة ورسوم الوزارة ، واستعملني في السفارة إلى الملوك ، واستتابني بدار ملكه ورمى إلى يدي بخاتمه وسيفه ، وائتمني على صوان حضرته ، وبيت ماله ، وسجوف حرمة ، ومعقل امتناعه ...)) (5) .

لقد وصل ابن الخطيب ، بفضل مهارته وذكائه مكانة عالية لدى سلطانه أبي الحجاج يوسف ، فأطلق يده لديه ، وجمع ابن الخطيب من ذلك مالاً كثيراً ، وعندما توفي أبي الحجاج يوسف خلفه ابنه (محمد الخامس) الملقب بالغني بالله (755 هـ - 760 هـ / 1354-1359 م) (6) ، الذي سار على نهج أبيه وقرب إليه لسان الدين وندبه للوصاية على الأمراء والقصر .

وقد استأثر ابن الخطيب بثقة الغني بالله ، كما استأثر أبوه من قبل ، وأسبغ عليه لقب ذي الوزارتين ، لجمعه بين الكتابة والوزارة ، ويقول في أعمال الأعلام : ((ولما هلك السلطان - أبو الحجاج - ضاعف ولده حظوتي ، وأعلى مجلسي ، وقصر الشورى على نصحي)) (7) .

وهكذا سطع نجم ابن الخطيب وعاش في ثراء طائل وتترف يناسب مركزه

الرفيع في الدولة .

-
- (4) محمد كمال شبانة ، يوسف الأول بن الأحمر سلطان غرناطة ، (القاهرة ، مطبعة الرسالة 1388 هـ ، 1968م) ، ص 61 .
- (5) المقرئ ، نفع الطيب ، ج 5 / ص 76 .
- (6) أنخيل بالنثيا ، تاريخ الفكر الأندلسي ، تعريب : حسين مؤنس ، (القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية 1375 هـ / 1955م) ، ص 252- 253 .
- (7) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام فيمن يبيع قيل الاحتلام من ملوك الإسلام ، تحقيق : ليفي بروفنسال ، (بيروت ، دار المكشوف 1376 هـ / 1956م) ، ص 310 .

ثانياً : توليه الوزارة :-

وجدت خطة(منصب) الوزارة في الأندلس منذ قيام الدولة الأموية ، وكان منصب الوزير في بادئ الأمر يشبه في مدلوله ما كان سائداً في بغداد في عصر الخلافة العباسية ، ثم جاء الأمير عبد الرحمن الثاني الأوسط (207 – 238 هـ / 822 – 852 م) ، الذي أعاد ترتيب الجهاز الحكومي في الأندلس ، وقسم الوزارة إلى عدة وزارات مختلفة (8) .

وأما في العصر الغرناطي ف كانت الوزارة هي القاعدة الأولى بعد رئاسة الدولة ، فالوزير هو الذي ينوب عن السلطان ، وهو الذي يهيمن على شؤون الدولة المدنية والاقتصادية والسياسية وكذلك العسكرية ، إلى جانب إشرافه على الكتابة وديوان الإنشاء ، ولهذا كان كثيراً ما يلقب الوزير الغرناطي بالألقاب تدل على قوة مثل: (عماد الدولة ، وذي الوزارتين ، والحاجب) وهذه الألقاب تدل على أن صاحبها يجمع بين سلطتي السيف والقلم (9) ، وقد تميز غالبية وزراء غرناطة بأنهم كانوا من أهل العلم والفضل والأدب ، فكان من أبرزهم وأشهرهم (لسان الدين ابن الخطيب) الذي بدأ حياته – كما ذكر سابقاً – في أرفع الدوائر ، ودُعِيَ للخدمة عقب وفاة أبيه في ديوان الإنشاء ، وتولى أمانة السر لأستاذه الرئيس ابن الجياب ولما توفي ابن الجياب – بالطاعون الجارف – خلفه تلميذه ابن الخطيب في رئاسة الديوان ، ومنحه السلطان رتبة الوزارة وألقابها ، وكان كبير الوزراء يومئذ الحاجب (أبو النعيم رضوان النصرى) (*) ومن ذلك الحين غدا ابن الخطيب شخصية بارزة

(8) سعيد عبد الفتاح عاشور ، وسعد زغول عبد الحميد ، وأحمد مختار العبادي ، تاريخ الحضارة الإسلامية العربية، الكويت ، دار ذات السلاسل 1396 هـ / 1976م) ، ص 154 .

(9) العبادي ، لسان الدين بن الخطيب ، ص 32 – 33 .

(*) هو من أصل قشتالي (ت 760 هـ / 1358 م) ، وكان ابن الخطيب يحظى بتقديره وثقته ، وهو الذي قام على إنشاء (مدرسة غرناطة الشهيرة) ، ويصفه ابن الخطيب بحسنة الدولة النصرانية وفخر موالئها ، يُنظر: ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج 1/ ص 518 .

في البلاط الغرناطي⁽¹⁰⁾ ، ودفع إليه الأمير تدبيراً لمملكة وفوضه معظم شؤون الدولة، في اختيار العمال والقضاة ، وإصدار المراسيم ، بل أنابه السلطان عنه في أثناء اشتراكه في المعارك⁽¹¹⁾ ، فانفرد ابن الخطيب بالحل والعقد ، وانصرفت إليه الوجوه وعلقت به الآمال وغشي بابه الخاصة والعامة⁽¹²⁾ .

ولما توفى السلطان أبو الحجاج (755 هـ / 1354 م) وبويع ابنه محمد الخامس الغني بالله ازدادت منزلة ابن الخطيب لديه ، فأفرده بالوزارة وظلت حاله في الترقى إلى أن خلع السلطان سنة (760 هـ / 1358 م)⁽¹³⁾ .

وقد ذكر ابن الخطيب الأعمال التي كان يقوم بها كالوقوف بين يدي السلطان في المجالس العامة ، وإيصال الرقاع ، وفصل الأمر ، والتنفيذ للحكم ، والترديد بينه وبين الناس، وإلقاء الخطب والإرشاد والموالاة والمجالسة ، جامعاً بين خدمة القلم والوزارة ، فقد ذكر تفاصيل أعماله واختصاصاته في الإحاطة بقوله : ((قمت لأول الأمر بين يديه بالوظيفة التي أسندها إليّ أبو الحجاج رحمه الله ، من الوقوف على رأسه ، والإمسك في التهاني والمبايعة بيده ، والكتابة والإنشاء والعروض والجواب والخلة والمجالسة ، جامعاً بين خدمة القلم ، ولقب الوزارة ، معزراً للخطط برسم القيادة ، مخصوصاً بالنيابة عنه ، على كل ما اشتملت عليه القلعة والحضرة مطلقاً أمور الإيالة ، محكماً في أشناته تحكيم الأمانة ، مطلق الجراية ، ظاهر الجاه والنعمة ،

(10) محمد عبد المنعم خفاجة ، الأدب في الأندلس ، (بيروت ، مكتبة المعارف 1382 هـ / 1962 م) ، ج 1 / ص 324 .

(11) ابن الخطيب ، كناسة الدكان ، ص 5 المقدمة .

(12) أبو العباس أحمد بن خالد السلوي الناصري (ت 1315 هـ / 1897 م) ، الاستقصا لأخبار دول المغرب

الأقصى ، تحقيق: جعفر الناصري ، محمد الناصري ، (دار البيضاء ، دار الكتاب 1374 هـ / 1954 م) ، ج 4 / ص 58 .

(13) العبادي ، لسان الدين ابن الخطيب ، ص 34 .

ثم نقلني من جلسة المواجهة إلى صف الوزارة ... ، وأحلني المحل الذي لا فوقه في
الخصوصية)) (14).

وهكذا استمر ابن الخطيب في منصبه حتى خُلع (محمد الغني بالله) وتغلب
أخوه (إسماعيل بن يوسف) مغتصباً ملكه سنة (760 هـ / 1358 م) وهرب الغني
بالله إلى سي وادي آش وسجن ابن الخطيب وصودرت أملاكه ، حتى تدخل سلطان
المغرب (أبو سالم إبراهيم بن علي بن إبراهيم) فأطلق سراح ابن الخطيب وسافر إلى
المغرب بصحبة ملكه المخلوع (15) ، ودامت مدة النفي ثلاث سنوات (760-
763 هـ/1361-1385م) ، وعاد السلطان الغني بالله إلى عرشه وعاد ابن الخطيب
إلى منصبه .

(14) ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج 2 / 15 ، وكذلك ربحانة الكتاب ، ص 5 (المقدمة).
(15) ابن الخطيب ، جيش التوشيح ، تحقيق: هلال ناجي ، (تونس م طبعة المنار 1387 هـ / ص 1967 م) ،
المقدمة.

ثالثاً : نشاطه السياسي :-

كان من عادة بعض الملوك والرؤساء الحكماء أن يختاروا وزراءهم ورجالهم من شاكلتهم ومن المثقفين مثلهم ، ولذلك كان من الطبيعي أن يكون الرجل النائب المثقف لسان الدين وزيراً لأبي الحجاج يوسف راعي الآداب وحمي الفنون ، ثم لا يلبث لسان الدين أن يصبح سفيراً للسلطان جامعاً السفارة إلى الوزارة ينتقل إلى الملوك في المهمات الجليلة ، ويسافر إليهم في الأحداث الكبيرة (16) ، فقد أنابه سلطانه أبو الحجاج، الذي وثق فيه منذ أن كان ابن الجياب على قيد الحياة في الحكم عندما خاض بعض المعارك ، وألقى إليه مقاليد مملكة غرناطة (17) ، فكان ذلك نقطة بارزة في التحول في حياته ، ومن مظاهر هذا التحول أيضاً أن السلطان كان يشركه في تدبير ملكه ، فقد ألقاه في أوائل سنة (744 هـ / 1343 م) بركبه الجهادي ضد القشتاليين .

وقد سارع السلطان أبو الحجاج – كما أسلفنا – إلى تعيينه في رئاسة الكتاب أو ديوان الإنشاء خلفاً لشيخه ، ومنحه رتبة الوزارة وألقابها فكان كاتب سره في المكاتبات السلطانية كما أوفده في عدة سفارات (18) .

ولما خلف السلطان يوسف أبو الحجاج في الملك ابنه ، أبو عبدالله محمد الغني بالله ، واستمر الحاجب رضوان في رئاسة الوزارة ، استمر ابن الخطيب في منصبه معاوناً له ، وقدم لنا ابن الخطيب في الإحاطة وفي ريحانة الكتاب ، بعض التفاصيل عن أعماله واختصاصاته في الخدمة السلطانية ، في بداية أيام السلطان الجديد ، منها:

1- الوقوف على رأس السلطان.

(16) الشكعة ، المغرب والأندلس ، ص 312 .

(17) ابن الخطيب ، اللحة البدرية ، ص 104 .

(18) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص 305 .

2- والإمساك في التهاني والمبايعة .

3- الكتابة والإنشاء والعروض والجواب و الخلعة والمجالسة ، جامعاً بين خدمة القلم و لقب الوزارة .

4- معزراً الخطط ب رسم القيادة ، مخصوصاً بالنيابة عنه ، على كل ما اشتملت عليه القلعة والحضرة⁽¹⁹⁾ .

إذا كان ابن ا لخطيب يقف بين يدي سلطانه في المجالس العامة ، ويقوم بإيصال الرقا ع و فصل الأمر ، والتنفيذ للحكم ، والعرض والإنشاء ، والمواكلة والمجالسة ، جام عاً بين خدمة القلم و لقب الوزارة ، فهو أكثر من وزير وسياسي وكاتب وشاعر ، فقد برع في النثر الوزاري والسياسي ، فترك في ه ذا الميدان تراثاً ضخماً من المراسيم السلطانية ، ومن الرسائل السياسية والدبلوماسية ، التي كان يكتبها على لسان سلطانه ، إلى ملوك إ سبانيا النصرانية ، أو سلاطين المغرب أو تونس أو مصر ، وفيها يتحدث عن علائق المودة أو التحالف ، أو يصف بعض الحوادث التاريخية ، أو يطلق صيحة الجهاد للعمل على نصره وطنه الأندلس ، والتماس النجدة والعون له من ملوك العدو⁽²⁰⁾ .

فهو سياسي بعيد النظر ، وكان يرى في حوادث الأندلس شبح المستقبل الرهيب واضحاً ، ويستشف بنافذ بصيرته ما وراء الحجب ، من نهاية محتومة لهذا الوطن الذي مزقته الأهواء والفتن ، وكان يرى هذا المصير المحزن قبل وقوعه بأكثر من قرن ، ويهيب بقومه وإخوانه المسلمين فيما وراء البحر أن يبادروا إلى نجده

(19) ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج5/2 .
(20) عنان ، 600 عام على وفاة وزير الأندلس ابن الخطيب ، مجلة العربي ، العدد 193 ، الكويت ، وزارة الإرشاد (394هـ / 1974م) ، ص 100 .

ونصرته ، وله في ذلك رسائل وخطابات عديدة مؤثرة ، في الحث على اليقظة ، و الذود عن الدين والوطن ، وإعلامهم بما يهددهم ويهدد دينهم ووطنهم من خطر المحو والفناء ، إذا تقاعسوا عن الدفاع عنه وقد نقل المقرئ عدد من هذه الرسائل

إن ما يؤكد شعور ابن الخطيب بخطر الفناء الذي ينتظر الأندلس ، ما وجهه في وصيته إلى أولاده من النصح بعدم الإسراف في إقتناء العقارات بالأندلس إذ يقول لهم: ((ومن رزق مذكم مالا بهذا الوطن القلق المهاد الذي لا يصلح لغير الجهاد ، فلا يستهلكه فيصبح عرضة للمذلة والاحتقار ، وساعياً لنفسه أن يتغلب العدو على بلده في الافتضاح والافتقار ، ومعوقاً عن الانتقال أمام النواب الثقال ...))⁽²¹⁾.

وقد كانت أغلب رسائله موجهة إلى البلاط المريني ، وقد كتبها على لسان سلطانيه أبي الحجاج يوسف وابنه محمد الغني بالله ، لأن بني مرين كان لهم فضل المساعدة الحقيقية للأندلس ، وفضل الجهاد الصادق في نصرته⁽²²⁾ .

إن المتأمل في الرسائل الديوانية النصرية إلى دولة بني مرين ، التي أبدعها ابن الخطيب يجدها تدور حول المحاور الآتية :

1- التوكيد على أواصر الإخاء والوحدة الإسلامية بين المملكتين ، لتنهض الدولتان صفاً واحداً في مجابهة الحملة الصليبية الضارية ، فما من رسالة من رسائله إلا وتحمل هذا المعنى وتؤكدده ، فقد جاء في رسائله الواردة في الريحانة والمكتوبة على لسان سلطانيه أبي الحجاج والغني بالله ، إلى السلطان أبي عنان المريني ما يدل على هذا المعنى ، مثل قوله : ((المقام الذي نبادر

(21) المقرئ ، نفح الطيب ، ج 2/ 425.

(22) ابن الخطيب ، الريحانة ، ص 105 ، 135 .

أبوابه بـ البشرى ،مُرْدفة أولاها بالأخرى ، ونَسْتَظهر بعزيمته الكبرى ، متى
أغضل الداء واستشرى ...))⁽²³⁾.

2- الحديث عن الجهاد الأندلسي وملابساته ، ويمثل هذا الحديث في رسائله
الطابع الغالب على رسائل حمراء غرناطة الأندلسية إلى البلاط المريني
المغربي ، وجعل هذه القضية من أهم قضايا الإسلام ، وإعلام سلاطين فاس
بقضية الأندلس و تفاصيل المعارك التي خاضها المجاهدون فيها ، سواء
كانت هجومية أم دفاعية ضد النصارى.

فعلى سبيل المثال رسالة كتبها على لسان سلطانه أبي الحجاج إلى السلطان
أبي عنان جاء فيها ((... وإنه تقدمت مطالعة مقامكم بما سناه الله لجيش المسلمين في
الغزوات المنصوصة عليكم من الصنع الكريم ، وأنهم تعاهدوا ما بينهم من ديار
الكفار معاهدة الغريم ، وأذاقوا من حطوا بساحتهم من أحزاب الضلال طعم
الوبال...))⁽²⁴⁾.

3- كذلك من محاور رسائله الديوانية التهئة بالانتصارات المرينية والمؤاساة في
مصائبها ، فقد كتب ابن الخطيب رسالة عن لسان سلطانه أبي الحجاج إلى
سلطان المغرب أبي عنان في التهئة باسترداد مدينة تلمسان من بني زيان
جاء فيها : ((المقام الذي مقدمة سعده تسلم ولا تمنع ، وحجة مجده لا ترد ولا
تدفع ، ونوافل فتوحه المؤيدة بملانكة الله وروحه توتر و تشفع ... ليوث
البأس وغيوث السماح الذي راضوا صعاب النصر من بعد الجماع ، ورفعوا
أسماء قبة على عمد الرماح ...))⁽²⁵⁾.

(23) ابن الخطيب ، الريحانة ، ص160.

(24) المصدر السابق، ص 216-217.

(25) المصدر السابق، 217.

4- كما اشتملت رسائل ابن الخطيب على محور الشفاعات ، أي التشفع لبعض

الشخصيات التي لجأت إلى الأندلس ، والاعتذار عنهم والوصايا بهم والتشفع

فيهم وطلب العفو والسماح لهم .

يبدو أن ابن الخطيب قد نهض بمكانته وبجاهه ، بكتابة رسائل كثيرة في

الشفاعات يسهل بها الصعاب ، ويسير بها على ذوي الحاجات ضائقتهم. وتتسم هذه

الرسائل بإعظام المخاطب ، والإغراق في مدحه لكسب عطفه ، كما تتصف بالإشادة

والثناء على أخلاق حاملها .

ومن هذه الرسائل في الشفاعات ما كتبه في مخاطبة السلطان أبي عنان في

حق الفقيه أبو عبد الله المقرئ الذي عزم الإقامة بالأندلس بعد خروجه من المغرب ،

جاء فيها : ((المقام الذي يحسب الشفاعة ويرعى الوسيلة ، وينجز العدة ، ويتم

الفضيلة ، من حمراء غرناطة حرسها الله ... فإننا خاطبنا مقامكم الكريم في شأن

الشيخ الفقيه، أبو عبدالله المقرئ ، خار الله لنا وله ، وبلغ الجميع من فضلة العميم أمه،

جواباً عمت صدر عن مثابكتكم فيه من الإشارة المتمثلة ، والمآرب المَعْملة ، والقضايا

غير المهملة ، نصادركم بالشفاعة التي مثلها بأبوابكم لا ترد ، وظماها عن مناهل

قبولكم لا يحلا ولا يرد.....)) (26) .

وهناك الكثير من هذه الرسائل التي وردت في كتابه (ريحانة الكتاب) ، وهي

تدل على عطف سلطان غرناطة وعظيم مزاياه في تساهله مع رعاياه، كذلك التوكيد

على الولاء للدولة المرينية .

(26) ابن الخطيب ، كناسة الدكان ، ص 154.

5- كما كانت له رسائل موجهة إلى المغربين الأدنى والأوسط ، و هي عبارة عن

مخاطبات ومكاتبات ديوانية كتبها لسان الدين إلى تونس الحفصية وإلى

مدينتي تلمسان وبجاية في الجزائر التابعتين في ذلك الوقت للدولة الزيانية .

فمن رسائله الموجهة إلى الدولة الحفصية ، رسالة كتبها إلى (أبي محمد بن

تافراجين) ، القائم بأمر الدولة الحفصية ، يعلمه فيها بعودة سلطانه محمد الغني بالله

إلى الحكم سنة (763 هـ / 1361 م) بعد خلعة ، وإخباره عن الحادثة الكبرى التي

أقصت سلطانه عن ملكه وعن عبث (الثوار أو الخارجين) وما قاموا به في غرناطة،

وكيف استطاع التغلب على هذا الوضع بمساعدة بني مرين ، ومما جاء في رسالته :

((..... إلى ولينا في الله الذي له القدر الرفيع ، والمجد السامي ، الشيخ الجليل ، الكبير

الشهير سلالة أكابر أصحاب الإمام أبي محمد عبد الله بن أبي العباس ... نُطلعكم

على غريب ما جرى به مُلكنا القُد ر ، وحيث بلغ الوردُ ، وكيف كان الصُدْر ، ...

وظاهرنا محلُّ أخينا السلطان الكب ير ، أبو سالم ، الذي كان وطئه مأوى الجنوح ،

ومهبُّ النصر الممنوح وَحَنَّتْنَا السير إ لى دار مُلكنا ، فدخلناها في اليوم الأغر

المُحَجَل ، وحصلنا منها على الفتح الهنيء المُعَجَل ، وعُدنا إ لى الأريكة التي نبا عنها

التمحيص ، ...))⁽²⁷⁾ .

إذاً كانت هذه الرسالة سياسية دبلوماسية لإخبار السلطان الحفصي بعودة حاكم

غرناطة إلى مملكته ، وتجديد الروابط وتقوية العلاقات بين غرناطة وتونس الحفصية.

ومن رسائله إلى المغرب الأوسط ، على لسان سلطانه أبي الحجاج إلى

سلطان تلمسان أبي عثمان بن أبي زيد بن زيان ، في عرض التهنئة بعودته إلى حكم

(27) ابن الخطيب ، الريحانة ، ص 501..

مدينة تلمسان ، وفحوى الرسالة هو التهنة برجوع أبي زيد بن زيان إلى الحكم مع التذكير بالروابط السياسية القديمة بين مملكة غرناطة وتلمسان ، وفيها يقول : ((المقام الذي نظم من عقود الدولة ما انتشر ، و أقال به مُلكها بعدما عتّر ، فأحيا السنن الحسن من مكارم قومه ، وأحيا الأثر ، مقام محل أخين الذي تُسر بتجديد وُدّه ، وإعادة عهده...))⁽²⁸⁾ .

و يبدو أن الغرض الرئيس الذي كان يريه ابن الخطيب ، في هذه الرسالة ، من الدولة الزيانية هو التذكير لبني زيان بمد يد العون إلى غرناطة ، في حروبهم ضد النصارى .

كما كانت له رسائل ديوانية أخرى موجهة إلى المشرق (مصر والحجاز) ، وهي قليلة ومعدودة وكان يدل سياق تلك الرسائل على أن البلاط الأندلسي كان يدعو إلى توثيق العهود ، وتقوية العلاقات ، وطلب الدعم السياسي للقضايا الجهادية الأندلسية التي تنهض بها دولة بني الأحمر⁽²⁹⁾ ، فقد كتب لسان الدين بن الخطيب ، عن سلطانه الغني بالله بعض الرسائل إلى الملك الناصر أبي عبدالله محمد بن قلاوون (684 – 741 هـ / 1285 – 1340م) حاكم مصر ، بقصد توطيد دعائم الأخوة ، وتوثيق العلاقات السياسية والدبلوماسية ، ومضمون هذه الرسائل الموجهة إليه هو التأكيد على أن غرناطة محاطة بالأعداء ومهددة بجيوش الصليبيين في كل وقت وحين، ومما جاء في إحدى رسائله إلى سلطان مصر : ((... والحال ما علمتم بحر

(28) المصدر السابق، ص 265 .

(29) المصدر السابق، ص 167 .

زأخر الأمواج ، وعدو واف ر الأفواج ، وحياد ضمرتها مصابرة الهياج ، وداءً على الأيام متوقع الاهتياج ..)) (30)

لقد أراد ابن الخطيب بهذا الخطاب دعوة سد لطان مصر إلى بذل الجهد مع سلطانه في إنقاذ الأندلس من الانهيار .

كما كانت له رسائل ديوانية موجهة إلى المدينة المنورة بالحجاز كان يُعرب فيها عن رغبته في توثيق عُرى الوحدة الإسلامية ، وتأکید الإخوة بين المسلمين، والتعريف بأحوال القطر الأندلسي وجهاده ، والمكابدة التي يلقاها المسلمون في ذلك القطر من العدو الذي يتربص بهم ، مثال هذه الرسائل : ((... ونحن نعرفكم بأحوال هذا القطر المتمسكة فروعه بتلك الجرثومة الراسية ، ... والصبيحة مع الأحيان مسمومة ، والأعداء لرد ما جازه الفتح الأول مجموعة ...)) (31)

إن المتأمل لرسائل ابن الخطيب الديوانية التي كتبها ، يجدها تدور حول الواقع الأندلسي المرير في ذلك القرن الذي عاش فيه المسلمون في الأندلس ، لذا استنجد بسلاطين تلك البلدان المخاطبة برسائله لطلب المساعدة وبذل العون المادي والمعنوي لدفع محنة الأندلس .

وإلى جانب الرسائل الديوانية كان يكتب ابن الخطيب نصوص البيعات والعهود والظواهر والصدقات بتكليف من سلاطينه في تعيين الأمراء والوزراء والقادة والكتاب وغيرهم ، وفي إنشاء عقود الزواج (32) .

(30) المصدر السابق، ص 299 .

(31) المصدر السابق، ص 209 .

(32) المصدر السابق، ص 206 ، كذلك للمحة البيرية ، ص 115 .

وقد جمع كل هذه الرسائل في كتابه الشهير المسمى (ربحانة الكُتّاب ونَجعة المُنتاب) الذي ضم رسائل المديح والتحميدات والرسائل الأخوانية التي توجه في التهنية بالزواج أو بحلول الربيع أو بالنصر في الحروب ، وكتب الاستظهار ، وكتب الشكر على الهدايا والتعازي والشفاعات ، وما إلى ذلك (33) .

وكان ابن الخطيب قد ملك زمام أرفع الأساليب شعراً ونثراً فظهر أثر ذلك على رسائله السلطانية التي حررها بقلمه على لسان ملوك الأندلس والمغرب والتي وصفها ابن خلدون " بالغرائب " (34) .

ومن ضمن نشاطه السياسي أنه قام بعدة سفارات سياسية إلى الدول المجاورة، فقد سافر ابن الخطيب إلى المغرب في أول زيارة له (752 هـ / 1351 م) ، وذلك عند وفاة سلطان المغرب (أبي الحسن المريني) ، حيث قام السلطان يوسف أبو الحجاج ، بإرسال وفد للجزء على رأسه وزيره ابن الخطيب ، قاصداً مدينة فاس ، حيث قدم عزاء مليكه إلى السلطان (أبي عنان) في وفاة أبيه (35) وكانت هذه أول زيارة لابن الخطيب إلى المغرب ، حيث أظهر في هذه المهمة نجاحه الكبير .

وقد أشار ، في كتاباته ، إلى أنه قام في ظل السلطان أبي الحجاج ، الذي عاش في كنفه ست سنوات ، بسفارات رسمية أخرى لكن أخبارها لم تصل إلينا (36) .

وفي عصر السلطان محمد الغني بالله ، ظل مشمولاً أيضاً بعطفه محفوظ المكانة والمنزلة عنده ، بل زاد في إكرامه وتوسيع اختصاصاته ونفوذه حتى غدا بحق

(33) بالنتيا ، تاريخ الفكر الأندلسي ، ص 259 .

(34) ابن خلدون ، العبر وديوان المبتدأ والخير في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، (بيروت ، دار الكتاب 1379 هـ / 1959 م) ، ج 7 / ص 690 .

(35) المصدر السابق، ج 7 / ص 332 .

(36) ابن الخطيب ، ربحانة الكُتّاب ، (المقدمة) ص 9..

سلطان غرناطة غير ال متوج ، فجدد له الرسوم الوزارية ، وفوضه في الاتصال بالوفود والناس وجعله ((مطلق الجراية ، مجدد الولايات ، معزز الخطة)) (37) .

وكان أول ما فكر فيه هذا السلطان هو أن يستأنف السعي لدى بلاط فاس حيث كانت مملكة غرناطة تمر في تلك الآونة بأحداث عصبية ، ذلك أنه اشتدت وطأة إ سبانيا النصرانية على مملكة غرناطة الصغيرة ، وأخذت ترهقها بالغزوات المتتالية لذلك بعث السلطان الغني بالله وزيره ابن الخطيب ، سفيراً إلى السلطان أبي عنان على رأس وفد من رجالات الأندلس ، يستنفر به ، ويطلب عونه على مقاومة مشاريع ملك قشتالة (38) .

وحمل ابن الخطيب معه إلى السلطان أبي عنان، رسالة دُجبت بقلمه عن لسان سلطانه ، يعرب عن أمله في تجديد أواصر المحبة والوصل ، ويرجو أن يجد ما يحقق الآمال في التعويل على ذلك الوضع الأسّي الذي تمر به مملكته سنة (755هـ/1354م) (39) وقد استقبل السلطان أبو عنان ، سفير الأندلس بترحاب وحفاوة ، وأنشده ابن الخطيب قصيدة يمدحه فيها ، يقول في مطلعها :-

خَلِيفَةُ اللَّهِ سَاعِدِ الْقَدِيرُ عَلَاكَ مَالِحِ الدُّجَى قَمَرُ

وَدَافَعْتُ عَنْكَ كَفُّ قُدْرَتِهِ مَا لَيْسَ يَسْتَطِيعُ دَفْعُهُ الْبَشَرُ

ونجح ابن الخطيب لحسن سعيه وروعة قصيدته في مهمته نجاحاً باهراً، واستجاب ملك المغرب للمطالب التي حملها لصالح ملك غرناطة ، وفي مقدمتها العون الحربي لمقاومة أطماع ملك قشتالة(40) .

(37) ابن الخطيب ، اللحة البدرية ، ص 115 .

(38) الناصري ، الاستقصاء ، ج3/191 .

(39) ابن خلدون ، العبر ، ج7/690 .

(40) شبانة ، يوسف الأول ، ص61-62 .

واستمر ذو الوزارتين محفوفاً بهذه الرعاية من السلطان (محمد الغني بالله) بعد عودته ، مخولاً الاختصاصات والصلاحيات المطلقة ، في القصر والمملكة زهاء خمس سنوات ، يدير بحنكته شؤون الدولة في الداخل والخارج ، ويرعى مصالحها ، ويشرف على علائقها السياسية والعسكرية مع الدول النصرانية المجاورة ، ومع الدول الإسلامية في المغرب والمشرق ، متقلباً في نعيم واسع مع أسرته في قصره الخاص ضمن قصور بني الأحمر . (41)

لقد كانت مواهب ابن الخطيب العلمية من أهم العوامل التي ساعدت على تقوية مركزه السياسي بوصفه وزيراً ، وذلك عن طريق الرسائل والقصائد والحكم والنصائح التي كان يرسلها إلى ملوك عصره . (42)

وقد عرف عنه أنه كان يخصص الليل للقراءة والتأليف يساعده في ذلك أرق أصابه ، بينما كان يخصص النهار لشؤون الحكم والسياسة ، ولهذا لقب بذوي العمرين . وهذا المجهود لم يحد من نشاطه وحيويته بوصفه وزيراً وعالمياً . (43)

وفي سنة (760هـ/1358م) حدث انقلاب في مملكة غرناطة أدى إلى خلع سلطانها – الغني بالله – وتولية أخيه إسماعيل بن يوسف مكانه ، وتمكن السلطان المخلوع من الفرار إلى المغرب الأقصى و اللجوء إلى السلطان (سالم بن إبراهيم المريني) وفرّ معه وزيره لسان الدين بن الخطيب . (44)

ومن هنا بدأت رحلة المعاناة والاغتراب التي عاشها لسان الدين بن الخطيب

فيما بعد .

(41) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص311.
(42) العبادي ، تاريخ المغرب والأندلس ، ص400.
(43) الشكعة ، المغرب والأندلس ، ص321.
(44) شاكرا الفحام ، لسان الدين بن الخطيب ، مجلة الثقافة ، (دمشق ، العدد 781411هـ/1990م) ، ص5.

الفصل الرابع

التغريب والاعتراب

في حياة لسان الدين بن الخطيب

أولاً : لجوء السلطان الغني بالله ووزيره لسان الدين إلى المغرب .

ثانياً: عودة لسان الدين وسلطانة محمد إلى غرناطة .

ثالثاً: علاقة لسان الدين بالمؤرخ ابن خلدون .

رابعاً : هروب لسان الدين بن الخطيب مرّة أخرى .

خامساً : أثر السعيات ضد لسان الدين ونكبته .

أولاً : لجوء السلطان الغني بالله ووزيره لسان الدين إلى المغرب :-

إن لجوء الأمراء والوزراء من دولة إلى أخرى دولة ومن بلد إلى بلد أمر مألوف ومعروف في مختلف العصور وفي كافة الأقطار ، وقد ظهر هذا النوع من العلاقات بين بني نصر بالأندلس وبني مرين بالمغرب. وكانت هذه الظاهرة أمراً طبيعياً بسبب الاضطراب السياسي والانقلابات التي رافقت القرن الثامن الهجري (1).

ففي اليوم السادس من محرم سنة (761هـ/1360م) لجأ السلطان محمد الغني بالله ومن بعده وزيره ابن الخطيب إلى المغرب ، بسبب الانقلاب عليه أدت إلى التجائه إلى وادي آش ثم إلى المغرب (2).

ومفاد ذلك أن الأمير إسماعيل أخا السلطان وبمساعدة جماعة من الزعماء الناقمين على الغني بالله ، ومن أبرزهم صهره زوج أخته ، أخذوا وأمه يعملون سراً لإسقاط الغني بالله وتنصيب أخاه مكانه و في هذه الأثناء كان الغني بالله قد تحول بأسرته إلى سكنى قصر (جنة العريف) فكان لابتنعاده عن دار الملك فرصة للمتآمرين ضده لئلا يقلاب عليه ، وبالفعل قاموا بمهاجمة قلعة الحمراء ، في 28 رمضان سنة (760هـ/1359م) ، واقتحموا دار الحاجب رضوان وقتلوه وسط أهله وأولاده ، ونادوا بإسماعيل أخي السلطان ملكاً مكانه وعندما شعر السلطان الغني بالله بالخطر وأنه لا جدوى من المقاومة ، فرّ إلى مدينة وادي آش الواقعة شمال شرقي غرناطة ، واعتصم بها ، وأرسل إلى السلطان إبراهيم أبي سالم بن السلطان أبي

(1) ابن الأحمر ، نثير فرائد الجمال ، ص 39 .
(2) محمد الشريف قاهر ، لسان الدين بن الخطيب وتراثه الفكري في تلمسان ، مجلة الأصالة ، العدد 26 ، الجزائر ، وزارة التعليم والشؤون الدينية ، 1395هـ / 1975م) ، ص 234 .

الحسن علي المريني (760-762 هـ / 1358-1360م) ملك المغرب في شأن اللجوء إليه ، فأجابه ملك المغرب بالقبول والترحاب (3) .

أما ابن الخطيب فحاول التقرب الى السلطان الجديد إسماعيل وكسب وده ورضاه ، فبقى في منصبه الوزاري ، ولكن لفترة قصيرة ؛ بسبب الشك في ولائه وبتحريض من خصومه تم القبض عليه ، ومصادره أملاكه (4) ، ولكن هذه المحنة لم تدم طويلاً، فبسبب العلاقة الحميمة التي كانت تربط الملك المخلوع الغني بالله بسلطان المغرب أبو سالم ، الذي رعى له عهد الصداقة ، أرسل في الحال إلى غرناطة سفيراً، يسعى لدى حكومتها الجديدة في الإفراج عن الوزير المعتقل ابن الخطيب وعبوره إلى المغرب (5) ، فاستجاب السلطان الجديد لشفاعته – طمعاً في استمرار المساعدة المغربية للأندلس – وتم الإفراج عن الوزير المعتقل الذي لحق بسلطانه إلى المغرب (6) .

وقد احتفل السلطان أبو سالم بقدمهم إلى فاس ، احتفالاً مشهوداً وذلك في (محرم سنة 761 هـ / 1360م) وانشد فيه ابن الخطيب بين يدي السلطان يومئذ قصيدة من أروع قصائده يدعوا فيها لنصرة سلطانه المخلوع ، هذا مطلعها :

سَلَا هَلْ لَدَيْهَا مِنْ مُخْبِرَةٍ ذِكْرُ وَهَلْ أَعْشَبَ الْوَادِي وَثَمَّ بِهِ الزَّهْرُ

وهل باكرَ الوَسْمَى داراً على اللَوَى عَقَّتْ أَيُّهَا إِلَّا التُّوْهُمَ وَالذِّكْرُ (7)

(3) ابن الخطيب ، اللحة البدرية ، ص 118 – 119 .

(4) عنان ، نهاية الأندلس ، ص 129 .

(5) الناصري ، الاستقصا ، ج 4 / 9 .

(6) قاهر ، لسان الدين بن الخطيب ، ص 234 .

(7) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص 312 .

وقد كان المؤرخ ابن خلدون من أكابر رجال الدولة في بلاط فاس من شهود ذلك الحفل – الذي أرسى حبال الصداقة بينه وبين ابن الخطيب – حيث قال : إن ابن الخطيب أبكى سامعيه تأثراً وأسى ، ثم وصف لنا ابن خلدون ختام الحفل قائلاً : ((ثم انقطع المجلس وانصرف ابن الأحمر إلى منزله ، وقد فرشت له القصور ، وقربت له الجياد بالمراكب المذهبة ، وبعث إليه بالكساء الفاخرة ، ورتبت الجرايات له ولمواليه وبطانته من الصنائع ...))⁽⁸⁾ .

واستقر الغني بالله بعاصمة المرينيين – فاس – تحت رعاية بالغه من سلطانها حوالي ثلاث سنوات ، كان يسعى خلالها لاسترداد ملكه .

أما ابن الخطيب فقد فضل الاستقرار بمدينة سلا التي تقع قرب رباط الفتح [العاصمة المغربية اليوم] وفيها شعر بالأمان والهدوء فألف عدداً كبيراً من مؤلفاته التاريخية والأدبية⁽⁹⁾ .

وقد علق بنفسه على إقامته فيها بقوله ((ثم ترجح لَدَى السكون إلى العافية ، والتمتع بالبقية الباقية ، فجنحت إلى السكون بمدينة سلا ، حيث ضربت الحرمة رواقها ، وأقامت الحسنه بسبب الضريح المقدس^(*) أسواقها ؛ تجرى على النعم ، ويطلبني المجد والكرم ؛ فلا أعدُّ من عُمرى إلا أيام مُ قامى بها ، وسكناي فيها ، تفرغاً إلى ما أريده من دنيا وآخره ، وعافية شاملة ، وجنة عالية))⁽¹⁰⁾ .

(8) ابن خلدون ، العبر ، ج 7 / 642 .

(9) قاهر ، لسان الدين ابن الخطيب ، 234 .

(*) هنا يشير إلى مقبرة (جبانة) " شالة " حيث دفن السلطان الكبير أبو الحسن المريني فيها .

(10) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص 313 .

وقد استأذن ابن الخطيب السلطان أبي سالم في التنقل بين عمالات [ولايات] مراكش والوقوف على سير الأعمال السلطانية فيها ، فأذن له بذلك ، وكتب إلى العمال باستقباله وإكرامه ، وتحقيق رغباته ، فزار البلاد من أقصاها إلى أقصاها ، وزار جبل هنتاتة(*) ، ووصف معيشة شيوخ قبيلته وأنواع المآكل والمشرب التي قدموها له ، ثم واصل رحلته إلى مدينة أغمات وتحدث عن محاسن أهلها وآثارها ، وزار ابن الخطيب في هذه المدينة قبر المعتمد بن عباد ، ملك إشبيلية وأحد ملوك الطوائف ، الذي نفاه المرابطون إلى هذا المكان في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ، وقد مدحه بقصيدة جميلة مطلعها :

قَدْ زُرْتُ قُبْرَكَ عَنْ طَوْعِ بَأْغَمَاتٍ رَأَيْتَ ذَلِكَ مِنْ أَوْلَى الْمُهِمَّاتِ

لَمْ لَا أَزُورُكَ يَا أُنْدَى الْمُلُوكِ يَدَا وَيَا سِرَاجَ اللَّيَالِي الْمُدْلَهَمَّاتِ (11)

وقد لقي بهذه المدن مجموعة من كبار العلماء والأدباء خاطبهم بالقصائد والرسائل ، وهم يردون عليه بقصائدهم وأشعارهم ، وهو يقوم بمراجعتها ، ومن العلماء الذين لقيهم : أبو عبد الله محمد بن عمر بن محمد الفهري السبئي ، وأبو عبد الله محمد بن جابر بن قاسم القيسي و أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الأبلبي ، (12) والكثير غيرهم .

(*) هنتاتة اسم يطلق على جبل أطلس كما يطلق على القبيلة المقيمة فيه ، ينظر : نفاضة الجراب ، ص 43

(الهامش).

(11) ابن الخطيب ، نفاضة الجراب ، ص 57 .

(12) المصدر السابق ، ص 58.

وقد وصف ابن الخطيب هذه الرحلة في كتابه (نفاضة الجراب في غلالة
الاعتراب) ، بعد ذلك عاد ابن الخطيب إلى مدينة سلا واستقر في ضاحيتها المعروفة
باسم شالة حيث الجبانة [المقبرة] الملكية لبني مرين .

وكان هناك ضد ربح أو قبر السلطان أبي الحسن المريني والد السلطان أبي
سالم ، ووقف ابن الخطيب أمام قبر السلطان وأنشد قصيدة يرثيه فيها ، وكانت هذه
القصيدة موضوع رسالة⁽¹³⁾ مؤثرة وجهها ابن الخطيب إلى السلطان أبي سالم
يستشفعه بوالده ، ويصور له حاله [يقصد ابن الخطيب نفسه] ويصف له بأنه سليل
الملك ، كثير العيال ، ضعيف الجسم ، ويحثه على أن يبادر في استخلاص أمواله من
الأندلس ، فكان لهذا التضرع أثره في نفس أبي سالم ، فقام بالعمل على تحقيق مراده ،
وبعث في الحال إلى الأندلس سفراء ليسعوا لدى بلاط غرناطة ، للإفراج عن أموال
ابن الخطيب⁽¹⁴⁾ .

وقد دامت المدة التي قضاها ابن الخطيب وسلطانه في النفي حوالي ثلاث
سنوات (761 - 763 هـ / 1359 - 1361 م) ، في هذه المدة التي عاشها ابن الخطيب
في المغرب ، لم يخلد فيها للراحة بل عكف على القراءة والتأليف وقرض الشعر
والإتصال بالعلماء⁽¹⁵⁾ .

و شاء القدر أن يصاب ابن الخطيب في أقرب الناس فتموت زوجته وأم أولاده
وكانت تقيم معه في بلدة سلا وأشدت ألمه وحزنه وفي هذا يقول :

(13) ينظر : نص الرسالة في الملحق رقم (4) .
(14) الناصري ، الاستقصا ، ص 25 وما بعدها .
(15) العبادي ، لسان الدين ابن الخطيب ، ، ص 346 .

((وفي السادس لذي القعدة من عام اثنين وستين وسبعمائة ، طرقتني ما كدّر
شربي ونغص عيشي من وفاة أم الولد عن أصاغر زغب الحواصل (أي أطفال) ،
بين ذكران وإناث في بلد الغربية وتحت سرادق الوحشة ، فجأت عليها حسرتي
واشدت جزعي فدفتها بالبستان المتصل بالدار بمدينة سلا ، وصدر عني مما
كتبت على ضريحها :

رُوعَ بالي وَهَاجَ بَلْبَالِي وسامني اُنْثَلُ بعد إقبال
دَخِيرَتِي حِينَ خَانِي زَمِي وعُدتي في اِشْتِدَادِ أَهْوَالِ
حَفَرْتُ فِي دَارِي الضَّرِيحِ لَهَا نَعْلًا بِالْمُحَالِ فِي الْحَالِ⁽¹⁶⁾

ونفهم من ذلك أن ابن الخطيب فرّ إلى المغرب بعائلته التي كانت تتكون من
عدة أبناء وبنات ، كما نلاحظ مكانة المرأة (الزوجة) عنده وذلك من خلال وصفه لها
في أبياته ، ويبدو أنه كان يحبها كثيراً لدرجة دفنها في داره بالقرب منه لا في المقابر
كما هو معروف !.

واستمر ابن الخطيب في منفاه وأستمر في التأليف والقراءة في شتى نواحي
العلوم والفنون ، إلى أن جاءه الفرّج وذلك باسترجاع ملك غرناطة عرشه بمساعدة
سلطان المغرب أبو سالم ، فبعد أن استقر محمد الغني بالله على عرشه أرسل في طلب
ابن الخطيب من المغرب للقيام بأعبائه الوزارية .

ثانياً: عودة لسان الدين وسلطانه محمد إلى غرناطة :-

لم تمض على إقامة ابن الخطيب بسلا عدة أشهر حتى وصلت إليه أخبار استيلاء أبي سالم المريني على عاصمة الزيانيين (تلمسان) ، في اليوم السادس من شعبان سنة (761هـ/1359م) ، وعلى أثر هذا الحدث بعث ابن الخطيب رسالة تهنئة إلى أبي سالم، وأتبع الرسالة بقصيدة رائعة بدأها مهناً بالفتح ، ثم طلب العون على استرجاع ملك غرناطة المغصوب ، ومستشفعاً بأبي سالم لدى الثائرين بالأندلس لإعادة أملاكه المصادرة ، فقال في رسالته : ((مولاي فتاح الأقطار والأمصار ، فائدة الزمان والإعصار ، أثير هبات الله الآمنة من الاعتصار ، قدوة أولى الأيدي والأبصار ، مستصرخ الملك الغريب من وراء البحار ...))⁽¹⁷⁾ ، وهنا يقصد ملك غرناطة ، وفي هذه الرسالة يتعرض ابن الخطيب إلى اعتصامه بقبر والد أبي سالم ، وهو أبو الحسن، يطلب له الرحمة والمغفرة ويتوسل به لدى نجله أبي سالم ليشفع له في رد أملاكه المغصوبة ظلماً ، يقول في ذلك : ((.... وضمن لي حسن العقبي التزاماً واشترطاً ، وقد عقد البصر بطريق رحمتكم شفاعتكم التي تتكفل بعق المال كما تكفلت بعق الرقبة⁽¹⁸⁾)) .

فالرسالة كما نرى سياسية ، فقد اتخذ ابن الخطيب من فتح تلمسان مناسبة لعرض مطالبه ، وكسب قضيته .

وبعد وفاة سلطان المغرب أبو سالم سنة (762 هـ / 1360م) . استبد وزيره عمر بن عبد الله بالدولة ، وتمهدت الظروف أمام الغني بالله لاسترداد عرشه وساعده

(17) ابن الخطيب ، نفاضة الجراب ، المصدر السابق ، ص 91 .

(18) المصدر السابق، ص92 .

في ذلك الوزير عمر بن عبد الله ، مقابل اقتطاعه مدينة (رُنْدَة) بالأندلس ، التي كانت من أملاك بني مرين الأندلسية ، التي ينزلون بها عند العبور لنجدة الأندلس ، وعندئذ عبر الغني بالله إلى الأندلس ، ونزل برُنْدَة ، ومعه جماعة من صحبه ، ثم سار بعد ذلك إلى غرناطة، واسترد عرشه المسلوب (19) ، بعد مقتل منافسه السلطان إسماعيل سنة (763هـ / 1361م) ، وعقب وصول السلطان الغني بالله إلى العرش ، أرسل إلى وزيره لسان الدين ، يطلب منه الإسراع في الالتحاق به ، ليتسلم مهام وزارته من جديد ، فما كان من ابن الخطيب إلا الإجابة وسارع في الالتحاق بعاصمة حكومته ، وأسندت إليه رئاسة الوزارة ، ولقب بذي الوزارتين ، وزارتي السيف والقلم ، وأصبح الرجل الأول في الدولة لحوالي عشرة أعوام .

وفي ذلك يقول صديقه ابن خلدون : ((وخلا لابن الخطيب الجو وغلب على هوى السلطان ، ودفع إليه تدبير الدولة ... وانفرد ابن الخطيب بالحل والعقد ...)) (20).

وقد شرح ابن الخطيب ، في كتابه الإحاطة ، سياسته التي سار عليها في دولة محمد الغني بالله بقوله : ((ورمى إلى بعد ذلك بمقاليد رأيه ، وحكم عقلي في اختيارات عقله ، وغطى من جفائي بلمه يده ، واستعنت بالله تعالى وعاملت وجهة فيه بالنظر في سد الثغور ، وصون الجباية ، وإنصاف المرتزقة ، ومقارعة الملوك المجاورة ، وإيقاظ العيون من نوم الغفلة ، وقدح زناد الرجولية ، وجعل الثواب غطاء الليل ، ومقعد المطالعة فراش النوم ، والشغل لمصلحة الإسلام)) (21).

(19) ابن خلدون ، العبير ، ج7/ص 694 .

(20) المصدر السابق ، ص 693 - 694 .

(21) ابن الخطيب ، الإحاطة ، ص 17 - 18 .

وهذا يدل على أن ابن الخطيب قد تضاعفت مكانته وملك زمام الأمور ، كما يدل على أنه كان يخصص الليل للقراءة والتأليف العلمي .

ويبدو أن كلاً من الجانبين السياسي والعلمي أفادا لسان الدين كثيراً ، فالسياسة أتاحت له فرصة الاتصال بسفراء الدولة وملوكها المختلفة ومعرفة أخبار بلادهم ، والإطلاع على الوثائق والمراسلات الرسمية ، واستخدامها في مؤلفاته التاريخية .

أما العلم فقد أعطى لابن الخطيب شهرة ومكانة دعمت مركزه السياسي كوزير ، وذلك عن طريق الرسائل والقصائد والنصائح التي كان يرسلها الى ملوك عصره .

ومكث ابن الخطيب ، في وزارته الثانية حوالي عشرة أعوام ، أنجز خلالها طائفة من الكتب ، أهمها (الإحاطة في أخبار غرناطة) ، وكتاب (اللوحة البدرية في الدولة النصرية) و كثيراً من رسائله السلطانية التي ضمها كتابه (ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب) . وهكذا أصبح ابن الخطيب في هذه الفترة من عمره ، رجل السياسة الأول ، لإستثنائه بالحكم المطلق .⁽²²⁾

ثالثاً: علاقة لسان الدين بالمؤرخ ابن خلدون :-

شاء القدر أن يلتقي في هذا - القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي - رجلين مهمين جمعت بينهما طائفة من المشابهات القوية ، سواء فيما خاضه كل منهما في حياته ، أو فيما خلفه كل منهما من تراث غزير منوع ، أو فيما كان يتبوأ كل منهما من مكانة بارزة في عالم التفكير والأدب .

(22) محمد عبد الله عنان ، بين ابن خلدون وابن الخطيب ، مجلة العربي ، العدد 85 (الكويت ، وزارة الإعلام ، 1385هـ / 1965م) ، ص 102 .

فالأول – وكما نعلم – هو ابن الخطيب ، أما الثاني فهو العلامة ، والمؤرخ ، ابن خلدون ، واسمه عبد الرحمن وكنيته ابو زيد ، ولقب به ولي الدين ، وشهرته ابن خلدون الذي ولد بتونس سنة (732 هـ / 1331 م) ، وكان هذا المؤرخ ، من أكابر رجال الدولة في بلاط فاس ، فقد كان كاتب السر والإنشاء (23) .

فالظروف السياسية التي مر بها ابن الخطيب ، من تشريد ونفي إلى بلاد المغرب ، هيأت له ب أن يتعرف على العلامة ابن خلدون ، وكان آنذاك لا يزال شاباً يافعا في مقتبل العمر ، وكان أول لقاء لهما في الحفل الذي أقامه سلطان المغرب أبي سالم للسلطان محمد الغني بالله ووزيره عند لجوءهما إليه ، فقد كان ابن خلدون من شهود ذلك الحفل ، فالتقى الرجلان في هذا الحفل لأول مرة وكان هذا اللقاء حدثاً مهماً في حياة كل منهما كان له أثره ونتائجه ، وتوطدت بينهما صداقة أخوية أشار إليها كل منهما في مؤلفاته .

كان ابن الخطيب يَكْبُرُ صَدِيقَهُ ابْنَ خَلْدُونِ بنحو عشرين سنة ، وهذه المدة تجعله في مرتبة والده ، وقد أظهر كل منهما هذا الفارق الزمني في رسائله ، فابن خلدون يخاطب صديقه بقوله : ((سيدي مجدداً وعلواً ، ومحل والدي برأ وحنواً)) ، فيجيبه ابن الخطيب بقوله : ((سيدي وولي وأخي ومحل ولدي " أيضاً " يا محل الولد لا أقسم بهذا البلد)) (24) .

على الرغم من فارق السن ، فقد كانت تجمع بينهما مشابهاة عديدة ، أدبية ومادية، وسياسية فقد كان كلاهما أستاذ عصره في التفكير والكتابة ، وكان ابن خلدون

(23) عبد المجيد سالم ، ابن خلدون ، مجلة عالم الفكر الإسلامي ، العدد 11 ، السنة الثامنة ، (بيروت ، دار الفتوى ، 1399 هـ / 1979 م) ص 49 .

(24) ابن خلدون ، التعريف ، ص 70 ، 108 .

يشغل في دولة المغرب نفس المركز الذي كان يشغله ابن الخطيب في الأندلس ، وكان كلاهما شخصية بارزة في حوادث عصره ، وكان كل منهما يحترم صاحبه ويجله ، وقد ترجم كل منهما للاً خر ، وذكره بما ينم عن خالص التقدير والإجلال ، وتبادلا طائفة من الرسائل الشخصية والسياسية (25) .

ويقول : ابن خلدون في ترجمته لابن الخطيب ((كان ابن الخطيب آية من آيات الله في النذر والنظم ، والمعارف والأدب ، لا يساجل مداه ، ولا يهتدي فيهما بمثل هداه)) (26) ، ويشيد ابن الخطيب أيضاً بابن خلدون ويصفه بأنه ((جم الفضائل ، باهر الخصال ، رفيع القدر ، ظاهر الحياء ، أصيل المجد ، وقور المجلس ، عالي الهمة ... ، كثير الجف ، إن نافست أرباب الرتب العالية فاعتبر ما نلت من رتب الحكمة ، وإن نافست أرباب الذمم فالمعارف هي وفور الذمة وأذفق في سوق السياسة صرفها من الهمة ، ولا تغفل ملاحظة الأمور المهمة ...)) (27) .

وقد جمعت بين الرجلين أواصر الحب والصدقة ، وكان ابن خلدون يعمل على خدمة ابن الخطيب ومرافقته عند لجوئه الأول إلى المغرب فقد قال ابن خلدون في كتابه التعريف : ((وحين وفد سلطان الأندلس على السلطان أبي سالم المريني ، وأقام عنده ، وحصلت لي معه صلة ووسيلة خدمة ، من جهة وزيره ابن الخطيب ، وما كان بيني وبينه من الصحابة فكنت أقوم بخدمته ، وأعمل في قضاء حاجاته في الدولة)) (28) .

(25) عنان ، بين ابن خلدون وابن الخطيب ، ص 21 .

(26) ابن خلدون ، التعريف ، ص 115 .

(27) ابن الخطيب ، نفاضة الجراب ، ص 349 .

(28) ابن خلدون ، التعريف ، ص 70 ، 79 .

إذا ندرك أن فترة مكوث ابن الخطيب الأولى في فاس كان مصاحباً لابن خلدون ، وكانت تربطهم علاقة حميمة ملؤها الاحترام والتقدير .

وبعد أن عاد ابن الخطيب وسلطانه إلى الأندلسُ وعاد كلُّ منهما إلى منصبه ، وشاءت الظروف بعد عام واحد أن يلحق بهما ابن خلدون إلى غرناطة سنة (764هـ / 1362م) ، بعد أن فقد منصبه ونفوذه في بلاط فاس ، فتلقاه السلطان الغني بالله وصديقه ابن الخطيب بأجمل آيات الترحاب والمودة ، وأغدق عليه السلطان رعايته ، وغمره بفضلته وإحسانه (29) وكتب إليه ابن الخطيب بكتاب يهنئه بالقدوم جاء فيه :

حَلَلْتَ حُلُولَ الْغَيْثِ بِالْبَلَدِ الْمَحَلِّ عَلَى الطَّائِرِ الْمَيْمُونِ وَالرَّحْبِ وَالسَّهْلِ

يَمِيناً بَمَنْ تَعُوُّ الْوَجُوهَ لَوَجْهَاءِ مِنْ الشَّيْخِ وَالطِّفْلِ الْمَهْدِ الْكَهْلِ

لَقَدْ نَشَأْتُ عِنْدِي لِلْقِيَاكِ غَيْطَةٌ تُنَسِّيَ اغْتَبَاطِي بِالشَّبِيْبَةِ وَالْأَهْلِ (30)

فقام ابن الخطيب باستقبال صديقه استقبالاً حافلاً يليق به ، وأقام ابن خلدون في غرناطة وعمل موظفاً في بلاطها ، وغمره سلطانها برعايته وإحسانه ، كما أرسله سفيراً عنه إلى ملك قشتالة (31) ، كما جعله ابن الخطيب من عديّة مجلسه ، واختصه بالنجوى في خلوته ، ومرافقته في مسيره ، والمواكلة والفكاهة في خلوات أنسه ، وأقام عنده في أحد قصوره (32) .

غير أن هذه العلاقة الطيبة التي توطدت بين ابن الخطيب وابن خلدون لم تلبث

أن أصيبت بشيءٍ من الفتور وسوء التفاهم بسبب السياسة .

(29) عنان ، ابن خلدون وابن الخطيب ، ، ص 23 .

(30) ابن خلدون ، التعريف ، ص 82 .

(31) عنان ، ابن خلدون وابن الخطيب ، ، ص 23 .

(32) ابن خلدون ، التعريف ، ص 84 .

فبعد أن أستقر ابن خلدون في غرناطة ، لبعض الزمن بدأ الوشاة يدسُّون بينه وبين صديقه ابن الخطيب ، ويُصورُون له أن وجود ابن خلدون في قصر الملك محمد الخامس ، يشكل تهديداً لكيانه الوزاري ، يقول ابن خلدون حول هذه القضية :

((لم يلبث الأعداء أهل السعاعات أن خيلوا للوزير ابن الخطيب من ملابستي للسلطان ، واستماله عليّ ، وحركوا له جواد الغيرة فتتكر ، وشممت منه رائحة الانقباض ...))⁽³³⁾

وهك ذا نجحوا الوشاة في إثارة الحسد لدى ابن الخطيب ضد صديقه ابن خلدون، وهو يرى انعطاف السلطان يزداد يوماً بعد يوم نحوه .

وبعد أن ساءت العلاقة بين ابن الخطيب وابن خلدون ، استأذن الأخير السلطان في السفر إلى إفريقيّة ، فأذن له وحضر ولاية " بجاية " ، وهو ميناء تجاري كبير مزدهر في الجزائر ، ولها تاريخ حافل بالنشاط العلمي والتجاري والسياسي ، هناك قلده سلطانها (عبد الله) ، منصب الحجابة ، وذلك سنة (767هـ/1365م)⁽³⁴⁾ .

وفي هذه المدينة ، بدأ ابن خلدون فصلاً جديداً من فصول حياته ، بعد أن تمكن أهل السعاعات في التفريق بينه وبين صديقه ابن الخطيب .

لقد غادر ابن خلدون الأندلس دون أن يصارح صديقه ابن الخطيب بما سمع من الوشاة كي يقطع الشك باليقين ويقضي على وشاياتهم ، لكن ابن خلدون لم يفعل ذلك ، بل كتم الأمر في نفسه ورحل في هدوء وصمت ، دون معرفة سبب تغير ابن الخطيب نحوه ، حفاظاً على المودة التي بينه وبين ابن الخطيب.

(33) المصدر السابق ، ص 91 .

(34) العبادي ، لسان الدين ابن الخطيب ، ، ص 41 .

على الرغم مما حدث من كدر وسوء تفاهم بين المفكرين العالميين ، فقد لبث كلاهما يحفظ للآخر مشاعر المودة والتقدير ، واستمرا يتبادلان الرسائل من أن لآخر، وهذه الرسائل في م جمعها تعتبر وثائق تاريخية مهمة تفيد كل من يريد البحث في تاريخ المغرب والأندلس في تلك الفترة ، لأن كلا من المؤرخين حرص أن يحيط صاحبه علماً بجميع الأحداث التي حلت ببلده ، كما تعتبر نماذج للأسلوب الكتابي في ذلك العصر .

واستمرت الحياة بين الرجلين ، أحدهما في الأندلس والآخر في المغرب ، وصلات الود والإخاء بينهما قائمة لا تنقطع (35) .

رابعاً : هروب لسان الدين بن الخطيب مرّة أخرى :-

لقد صار ابن الخطيب في المرحلة الثانية من حياته الوزارية حاكماً بأمره ، وكان يعاونه في الوزارة تلميذه الشاعر (ابن زُمرَك) الذي كان يتولى كتابة السر في كنفه وتحت رعايته ، وكان استنثاره بالنفوس والسلطان على هذا النحو ، يذكي سخط منافسيه، وكثرة حساده ، خاصة وأن السلطان كان يثق به كثيراً ، ويترك له زمام الأمور ، ويعرض عن الإصغاء لأعدائه ، ومنافسيه ، ولكن هذه الثقة والمكانة لم تدم طويلاً ، فقد أصبح السلطان يسمع ويتأثر بوشاية الأعداء ضده ، ورأى في استبداد ابن الخطيب اعتداء على سلطانه ، وشعر ابن الخطيب من جانبه بتغيير سلطانه عليه ، وأخذ يتوجس شراً من العواقب ، وأدرك ما يحاك ضده في الخفاء من دسائس ومؤامرات ، وكان في مقدمة خصومه والساعين ضده ، تلميذه ومع اونه في الوزارة ابن زمرَك ، وقاضي الجماعة بغرناطة أبو الحسن النباهي – الذي كان هو الآخر من

(35) عنان ، ابن خلدون وابن لخطيب ، ، ص 23 .

تلاميذه – وقد اتهم ابن الخطيب بأشدّ التهم وهي الإلحاد والخروج عن أحكام الدين
وشريعة الإسلام⁽³⁶⁾ .

وقد وصف لنا ابن الخطيب هذه الفترة الحرجة من حياته بعبارات يقول فيها :

((وصرت أ نظر إلى الوجوه ، فألمح الشر في نظراتها ، وأعتبر الكلمات ،
فأتبين الحسائف في لغاتها ، والصبغة في كل يوم تستحکم ، والشر يتضاعف ، ونعمة
الولد تطلق لسان الحسود ، وشيع الكلاب المطيعة في تهيج حسائف النمر الجائعة
والأسود، والأصحاب الذين تجمعهم المائدة كل يوم وليلة يفتنون في الإطراء والمديح ،
وتحسين القبيح ، والمحالات في الغى ، والإرشادات بالعيون ، أنظر إليهم يتناقلون
الإشارات بالعيون ، والمغامزة بالجفون ، والمخاطبة باللاغوز ، فإذا انصرفوا صرف
الله قلوبهم ، فقد لبوا الأمور ، ونقلوا العيوب ، وأفسدوا القلوب ، وتعلوا بالأحلام ،
وقواطع الأحكام))⁽³⁷⁾.

و مما يلاحظ أن ابن الخطيب قد شعر بعيون المقربين إليه ترمقه بحقد دفين ،
وبُغض كمين ، فأظلمت في عينيه الدنيا وضافت عليه الأرض بما رحبت .

في مثل هذا الجو المشحون بالدسائس والمؤامرات ، قرر ابن الخطيب مغادرة
الأندلس واللجوء إلى المغرب ، حيث الهدوء والأمن على النفس والمال والولد ، فطلب
من سلطانه السماح له بأداء فريضة الحج وزيارة الديار المقدسة ، ولكن الغنى بالله أخذ
يماطله مرّة ، ويمانعه مرّة أخرى ، والشر يزداد ويتضاعف ، ورأى الأخطار محدقة
به من كل جانب ، وتوقع الأذى بين لحظة وأخرى ، فشمّر عن ساعده للرحلة عن

(36) ابن خلدون ، العبير ، ج 7 / ص 371 .
(37) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص 316 .

الأندلس واللاحق بالمغرب ، حيث السلطان المريني أبو فارس عبد العزيز أبي الحسن (767-774 هـ / 1365 - 1372 م) ، ينتظره بكل حفاوة، ومن هناك يشد الرحال إلى الديار المقدسة ، لأداء فريضة الحج ((وقلت احج نفسي ، وأقضي فرضي ، وأشغل الناس بغيري ، وأكون بعد ذلك محكماً من أمري ...)).⁽³⁸⁾

و فعلاً خرج ابن الخطيب من الأندلس لآخر مرّة ، في غرة جمادي الآخرة من سنة (772 هـ / 1370 م) ، فقد استأذن السلطان الغني بالله في تفقد الثغور العربية من الأندلس ، فأذن له وسار مع ولده ، علي ، وجماعة من الفرسان إلى الجنوب ، ولما وصل إلى جبل طارق ، تلقاه قائدها بقواته ، و كان جبل طارق يومئذ من أملاك بني مرين ، وكان السلطان عبد العزيز قد أصدر أوامره باستقبال ابن الخطيب وتجهيز السفن اللازمة لنقله هو ومن معه إلى المغرب ، ونجح في الفرار والهروب إلى المغرب.⁽³⁹⁾

وهناك استقبله السلطان عبد العزيز المريني أجمل استقبال ، وأرسل في الحال سفيراً إلى غرناطة ليعسى في استقدام أسرته ، فأتى بها معززة مكرمة .⁽⁴⁰⁾

(38) المصدر السابق ، ص 317 .
(39) الناصري ، الاستقصا ، ص 58 .
(40) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص 318 - 319 كذلك : ابن خلدون ، العبر ، ص 696 .

خامساً : أثر السعائيات ضد لسان الدين ونكبته :-

استقر ابن الخطيب في مقامه الجديد ، بعيداً عن الأهل والوطن ، وما غمره به سلطان المغرب من كرم وعلو المكانة وجزيل العطاء والنعمة ، خفف كثيراً من مرارة المنفى ، وهكذا شعر ابن الخطيب أنه استرد في بلاط المغرب مكانته المفقودة .

ولكن فرار ابن الخطيب على هذا النحو لم يهدئ من ثورة خصومه ، بل كان بالعكس حجة لديهم تساعد على إدانته ، فيما يرمونه به من التهم فضاغفوا سعيهم لملاحقته وسحق هيئته ، وتشويه سمعته ، فاتهموه بالزندقة ، والخروج عن شريعة الإسلام ، ونسبوا إليه أقوالاً ومقالات م ما جاء في بعض كتبه ورسائله منها كتاب (روضة التعريف بالحب الشريف) ، وزعموا أن هذه المقالات ما هي إلا طعناً في النبي " صلى الله عليه وسلم " ، والقول بالحلول ومجاراة مذهب الفلاسفة الملحدين (41) وهذا ما ذكره المقرئ حين قال : ((إنه لما قلبت الأيام لابن الخطيب ظهر المجن وأكثر أعداؤه في شأنه ، ونسبوه إلى الزندقة والانحلال من ربة الإسلام بتنقص النبي " عليه أفضل الصلاة والسلام " ، والقول بالحلول والإلحاد ، والانخراط في سلك أهل الإلحاد، وسلوك مذاهب الفلاسفة في الاعتقاد)) (42) .

وهذه التهم لم نجد في مؤلفات ابن الخطيب ، التي أطلقت عليها وحسب شهادته أي أساس لها من الصحة ، أو ما يثبت ذلك ، وهي بالتالي باطلة بالاستناد إلى ما ورد في أقوال ابن الخطيب نفسه ، فابن الخطيب يحدثنا عن الاتحاد والحلول في أكثر من موضع بكتابه (روضة التعريف) فمن بعض ما يقوله : (جذرة الاتحاد

(41) عنان ، لسان الدين بن الخطيب ، ص 151 .

(42) المقرئ ، نفح الطيب ، ج 5 / ص 11 .

والحلول وهما من مقالات النصارى، وأن الإلهية حلت في عيسى واتحدت به ، وبذلك يبرئ الأكمه والأبرص ، ويحيي الموتى ، وهذا لا يكون إلا بالقدرة القديمة ، وهو باطل ، أما الحلول فيلزم منه الافتقار، والحاجة إلى محل ، والمماساة والانتقال ، وهذه هي صفات الأجسام ، وأما الاتحاد : فإن الثنوية إذا اجتمعت ، إن هي بقيت فلم تتحد ، وإن زالت فلم تجتمع ، وإن أرادوا أن الصفة التي هي القدرة القديمة حلت أو اتحدت فمزيلة الصفة القديمة ، لموصوفها محال في العقل، ولا يصح عليها حلول ، ولا اتخاذ بجسم ، ولا انتقال للجسوم))⁽⁴³⁾.

من الواضح أن هذا الاتهام غير صحيح وهو مدبر لبواعث السياسة لا لبواعث الدين والعدالة ، والجدير بالذكر أن كتاب (روضة التعريف بالحب الشريف) كان قد تم وضعه في أوائل سنة (769 هـ / 1367 م) ، ولم يقل أحد يومئذ أنه يحتوي على أية أقوال خارجة عن الشريعة .⁽⁴⁴⁾

وقد وجه القاضي ، أبو الحسن النباهي ، إلى ابن الخطيب بالمغرب رسالة شديدة اللهجة ، هي بمثابة اتهام شخصي وشرعي معاً ، يعدد فيها مثالبه ويرميه بالزندقة والإلحاد ، إضافة إلى أن كتب ابن الخطيب التاريخية الأخرى مثل كتاب (الإحاطة) و ما أشتمل عليه من تراجم الأحياء المعاصرين والأموات الاقربين ، إنما هي من قبيل الغيبة المحرمة ، ودعوا إلى جمعها ووجوب إحراقها ، وبالفعل تم حرقها في غرناطة ، في منتصف سنة (773 هـ / 1371 م) وبمحض من الفقهاء والعلماء.⁽⁴⁵⁾

(43) ابن الخطيب ، روضة التعريف ، ص 201 - 202 .

(44) عنان ، لسان الدين بن الخطيب ، ص 155 .

(45) النباهي ، تاريخ قضاة الأندلس ، ص 202 .

يبدو أن النكبة التي حلت بهذا المؤرخ الكبير ، لم تكتمف بالمطالبة بقتله ومصادرة أملاكه ، بل امتدت إلى وجوب حرق مؤلفاته وطمسها .

وهكذا مضى خصوم ابن الخطيب في غرناطة سعيهم لمطاردته وإهلاكه ، حتى بعد رحيله ، فبعد أن قضى بإحراق كتبه ، بعث القاضي النباهي ، رسالة إلى السلطان عبد العزيز المريني ، يطالبه بتنفيذ حكم الشرع ، وهو الإعدام في حق ابن الخطيب ، فرفض سلطان المغرب هذا الطلب بشدة ، قائلاً لهم ((هلا فعلتم أنتم ذلك حين كان عندكم ، وأنتم عالمون بما كان عليه ، وأما أنا فلا يخلص إليه أحد ما كان في جواربي))⁽⁴⁶⁾ وزاد السلطان في إكرام ابن الخطيب ورعايته .

غير أن هذا الردّ لم يقعد الساعين ضد ابن الخطيب من تكرار السعي ، وأصبح هذا الأمر غاية من أهم غاياتهم لدي بلاط المغرب ، وزاد في هذا السعي أن ابن الخطيب أخذ يحرض السلطان عبد العزيز ، على ضم الأندلس إلى ملكه في عملية توحيدية ، أي وحدة ملك المغرب والأندلس ، خاصة وأن بني مرين كانوا في أواخر القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي ، يضعون أيديهم على بعض القواعد الأندلسية الجنوبية ، كذلك أن ملاذ الأندلس من الخطر الدايم هو المغرب ، أي قوة بني مرين⁽⁴⁷⁾ ، ربما أن ابن الخطيب كان يرى في اتحاد الأندلس مع المغرب يشكل قوة عظمى يمكن بها مواجهة الخطر الإسباني الذي يزداد يوماً بعد يوم وإبعاد شبح سقوط الأندلس .

غير أن الظروف سرعان ما تُغيّر الأحوال ، إذ يموت السلطان أبو فارس عبد العزيز ، سنة (774 هـ / 1372م) ، وكان هذا الأمر مفجع لبلاط بني مرين ولابن

(46) ابن خلدون ، العبير ، ج7 / 335 - 336 .

(47) المصدر السابق ، ص 338 .

الخطيب ، الذي تألم لهذا الحادث بقوله ، ((ثم ذك الجبل العاصم من الطوفان ،
والممسك للأرض عند الرجفان ، فكان موت المولى المرحوم أبي فارس الذي أومنا
إليه ، وعولنا عليه ، ووثقنا بوعده ، وتمسكنا بعهده ، فانخرق الحجاب ، واستأسدت
الذئاب ، واستنشرت البغاث والذباب ...)) (48)

لقد سئم ابن الخطيب في أواخر حياته ، حياة الوزارة ودسائسها ، وأراد
التخلي عن خدمة الملوك ، والتخلي بزينة أهل التصوف ، كما كان يستعد للرحيل
صوب المشرق لأداء فريضة الحج ((وشرعت عند ذلك في الحركة إلى وجهتي
الحجازية..... ، والشرع فيما يخص ذلك من العزيمة ، فأخذت في تقدير الإقامة ،
وانتظار ركب الرحلة)) (49) ، ولكن الله لم يرد ما أراد ابن الخطيب .

وخلف عرش المغرب ابنه أبو زيان السعيد ، وكان طفلاً في الرابعة من
عمره ، فتولى كفالته والقيام بشؤون الدولة الوزير أبو بكر بن غازي ، فكرر الغني بالله
طلبه بتسليم ابن الخطيب أو قتله ، فلم يستجب الوزير لطلبه ، عندئذ قام ابن الأحمر
(الغني بالله) باصطناع فتنة في المغرب أطاحت بالسلطان المريني القاصر وبوزيره
أبو بكر غازي (50) ، وتولى العرش أبا العباس أحمد المستنصر بن إبراهيم بن علي ،
سنة (776 هـ / 1374 م) ، وتولية الوزارة لسليمان بن داود ، وبإدارة السلطان الجديد
بالقبض على ابن الخطيب واعتقاله ، تنفيذاً لوعده لابن الأحمر ، وبعث ابن الأحمر
وزيره ابن زمر ليحل محل علي تحقيق هذه الرغبة مع حكومة فاس ، ولكن ابن العباس
المستنصر آثر أن تجري محاكمته في فاس وبحضوره ، فعقد له مجلساً من رجال
الدولة والشورى ، واستدعى ابن الخطيب ووجهت إليه التهم المنسوبة إليه ، ونوقش

(48) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص 320 .

(49) المصدر السابق ، ص 319 .

(50) الناصري ، الاستقصا ، ج 4 / ص 63 .

أمام هذا المجلس حول كافة الادعاءات ، وأولها تهمة الزندقة والإلحاد ، التي صاغها القاضي النباهي ، حيث أول بعض مقولاته في كتابه (روضة التعريف) وفق مقصده، وزعم أن فيها ما يتضمن طعناً بالنبي (صلى الله عليه وسلم) والقول بالحلول ومجارة مذهب الفلاسفة الملحدين⁽⁵¹⁾ .

وكان هذا المجلس مجلساً صُورياً بطبيعة الحال ، فعظم التكبير فيه وويخ ابن الخطيب ، وأفتى بعض الفقهاء بقتله⁽⁵²⁾ .

وإن لا نعرف ما دار في هذا المجلس بالضبط ، ولا ما تلي فيه من أقوال ، كل ما نعرفه أنه كان بين الحضور أبو عبدالله بن زمرك ، والذي قدم خصيصاً لتنفيذ مهمة القضاء على أستاذه ابن الخطيب ، كما لم تصلنا أسماء الفقهاء أو القضاة الذين حضروا هذا المجلس⁽⁵³⁾ .

وأوذي ابن الخطيب أمام شهود هذا المجلس ، وعذب ، ثم أعيد إلى سجنه ، حيث دبر له الوزير سليمان بن داود أمر قتله في السجن ، وفعلاً دس عليه بعض الأوغاد الذين قتلوه خنقاً في السجن ، وذلك أواخر سنة (776 هـ / 1374م) ، وفي الصباح دفنت جثته بالمقبرة الواقعة تجاه باب المحروق أحد أبواب فاس القديمة ثم أخرجت الجثة في اليوم التالي وأضرمت حولها النار ، فاحترق شعر الرأس ، واسودت البشرة تم اعيدت إلى القبر⁽⁵⁴⁾ .

(51) عنان ، لسان الدين بن الخطيب ، ص 151 .

(52) الناصري ، الاستقصا ، ص 63 .

(53) عنان ، لسان الدين ، ص 168 .

(54) ابن خلدون ، العبر ، ج 7 / ص 708 .

وهكذا اغتيل ذي الوزارتين ، وزارتي السيف و القلم ، وذي العمرين ، وذي الميئين؛ لأنه بعد خنقه ودفنه ، نبش قبره وحرق ثم دفن ثانية .

وقد رثى ابن الخطيب ، نفسه بقصيدة⁽⁵⁵⁾ ، وهو في سجنه متوقفاً مصيره المؤلم ، يقول في مطلعها :

وقل للعادة مضي ابن الخطيب وفات فسبحان من لا يفوت⁽⁵⁶⁾

وهكذا ذهب المؤرخ و الكاتب والمفكر والسياسي الكبير ضحية التعصب والأحقاد السياسية ، مخلفاً وراءه ثروة هائلة من العلوم والفنون المختلفة جعلته حياً إلى يومنا هذا .

والسؤال هنا الذي يطرح نفسه ، ما هي الأسباب الحقيقية وراء اغتيال وزير مشهور وناجح مثل ابن الخطيب ؟ ولإجابة على هذا التساؤل يمكن صوغ الوقائع التي قادت إلى مصير ابن الخطيب المفجع على النحو الآتي :

- فبعد خلع السلطان محمد الغني بالله عن عرشه ، صانع ابن الخطيب (السلطان إسماعيل)، بعد انقلابه ، لبعض الوقت ، غير أن الأخير ، بعد ذلك اعتقاله ، وبالتالي لم يغفر م حمد الغني بالله لابن الخطيب ما فعل ولكنه سكت عن ذلك مؤقتاً.

- تدخل ابن الخطيب في شؤون الدولة ، ورفضه آراء معارضيه ، كابن زمرك، والقاضي النباهي .

(55) ينظر: ملحق رقم 4 .
(56) المقري ، نفح الطيب ، ج 5 /ص 112 .

- انفراد ابن الخطيب بالحكم في أثناء انشغال محمد الغني بالله بالجهاد ، وهذا ما زاد من أعدائه .
- حرص ابن الخطيب على جمع المال وامتلاك الأراضي والقصور ، في حين منع تلميذه ابن زمرك في مكاسب شخصية من منصبه ، وبالتالي سعى ابن زمرك من الانتقام منه.
- كذلك من الأسباب الأخرى ، تحريض ابن الخطيب سلطان المغرب بضم الأندلس إلى ملكه ، واتحادها مع المغرب أو وحدة الأندلس والمغرب.

الفصل الخامس

آثاره التاريخية واهتماماته الأدبية والعلمية

أولاً: مؤلفاته التاريخية.

ثانياً: اهتمامه بالجغرافيا.

ثالثاً: نبوغه في النثر والشعر و نظم القصائد

والموشحات.

رابعاً: عنايته بالطب والتأليف فيه.

خامساً: علاقته بالتصوّف.

ترك ابن الخطيب نتاجاً تاريخياً و علمياً وأدبياً ضخماً ومتنوعاً في التاريخ والسياسة والتراجم والأدب والطب والتّصوف ، وهذا ال نتاج جعله من أكبر كتّاب عصره وشعرائه ، لقد كان بالفعل موسوعة أد بية علمية إنسانية لم تتوا فر كثيراً في الأندلس.

فقد أل ف ما يناهز عن ستين كتاباً في مختلف الفنون والعلوم ، حيث كتب بعض هذه المؤلفات في موطنه غرناطة ، وكتب بعضها الآخر في المغرب في أثناء هروبه الأول والثاني .⁽¹⁾

وقد ذكر أسماء مؤلفاته في آخر كتابه الإحاطة .⁽²⁾

وبعض هذه المؤلفات مطبوعٌ ومنشور مثل :

- الإحاطة في أخبار غرناطة.
- الكنيية الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة.
- اللمحة البدرية في الدولة النصرية.
- كناسة الدكان بعد انتقال السكان.
- روضة التعريف بالحب الشريف.
- الصييب والجهام والماضي والكهام ، (ديوان شعره).
- معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار.
- نفاضة الجراب في علالة الاغتراب.
- أعمال الأعلام فيمن بويغ قبل الإحتلام من ملوك الإسلام.
- ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب.

(1) عنان ، لسان الدين بن الخطيب ، ص200.

(2) وقد أفردت ملحق رقم (6) بأسماء كتبه التي وصلتنا والتي لم تصل إلينا.

تلك مؤلفات لسان الدين المتداولة والمشهورة ، وبعضها الآخر لم يتم نشره بعد ، والبعض الآخر في حكم المفقود ، فمنهما ما أحرق معه ، فيبدو أن المحنة التي أدت بحياته قد امتدت أيضاً إلى بعض مؤلفاته بالحرق والإتلاف أو الإخفاء فقد وجدت إحدى مخطوطاته عند احد الوراقين في مدريد القديمة ، كما قام الكردينال (لاكسيمنس) في سنة (917هـ/1511م) بإعدام وإحراق آثار المسلمين بعد سقوط غرناطة (3)

أولاً : مؤلفاته التاريخية :-

تكمن شهرة ابن الخطيب في ا لمقام الأول إلى كونه مؤرّ خاً ، وخاصة في الفترة التي عاش فيها في غرّ ناطة ، وهو مصدر لا غنى عنه للباحث في تاريخ الأندلس ، فهو مؤرّ خ متمكن ، يتجه إلى الإسهاب والإفاضة في وصف الأحداث ، وأسلوبه نثري مرسل جزل غير مسجع ، وعباراته سهلة ميسورة إجمالاً ، ويكثر من المحسنات اللفظية والبديعية لتزيين عباراته ، وما مكن ابن الخطيب من البراعة والإجادة في عرض مادته التاريخية ، كونه أديباً يجيد اللغة والبيان ومؤرخاً ملماً بمصادر تاريخ الأندلس ومطلعاً عليها (4) .

والتاريخ لدى ابن الخطيب ليس مجرد نقل للأحداث السياسية وسير الملوك والسلطين ، بل هو تصوير للحياة الاجتماعية والاقتصادية ، و العمرانية ، بما تشمله هذه الحياة من رقي وإزدهار ، أو تخلف وتدهور ، وهو في ذلك يتابع التفاصيل الدقيقة للموضوع الذي يتحدث عنه.

(3) ظافر القاسمي ، عالم الأندلس البكر ، مجلة المجمع العلمي العربي ، (دمشق مج 38 ، 1382 هـ / 1963م) ، ج 2 / ص 345.

(4) أمين توفيق الطيبي ، دراسات في التاريخ الإسلامي ، (طرابلس : دار الأندلسية ، ليبيا 1413 هـ - 1992م) ، ص 233 ، 253 .

وكتب لسان الدين بن الخطيب التاريخية ، هي في الوقت نفسه كتب أدب مليئة بالشعر والقصائد النفيسة مع ذكر المناسبة التي قيلت فيها ، فطبيعته الأدبية تفرض نفسها عليه في كل عمل يقوم به (5) ومن أهم كتبه -التي توافرت - في هذا المجال.

1- الإحاطة في أخبار غرناطة :

وهو كتاب شهير وغني وكبير وهو معجم أعلام جمع فيه ابن الخطيب سير ملوك وأمراء وعلماء غرناطة ، ومن وفد عليها وسكنها من المشرق والمغرب ، مرتباً أسماؤهم على حروف المعجم (حروف الهجاء) ، ويذكر ابن الخطيب أن ما دفعه لتأليف هذا الكتاب هو حبه لموطنه غرناطة والاعتزاز بها (6) .

لقد أراد ابن الخطيب من وضع هذا الكتاب منافسة بعض المؤرخين السابقين له الذين أرخوا لبلدانهم - كما ذكر هو في مقدمة كتابه - ومن ذلك على سبيل المثال : تاريخ بغداد أو مدينة السلام ، للخطيب البغدادي (7) ، وتاريخ دمشق ، لابن عساكر(8)... وغيرهم هو الإمام الحافظ أبو القاسم علي بن أبي محمد الحسن بن هبة الله بن عبدالله ، المعروف بابن عساكر (ت 571 هـ / 1175م) ، كان محدث الشام في وقته ، ومن أعيان الفقهاء الشافعية ، وقد صنف الكثير من الكتب أهمها (تاريخ دمشق) الذي يشمل تاريخ دمشق من العصر الجاهلية حتى العصر الذي عاش فيه .

(5) الشكعة ، المغرب والأندلس ، ص 318 - 319 .

(6) ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج 1 / 85.

(7) أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر ابن خلكان (ت 681 هـ / 1282 م) ، وفيات الأعيان وأنباء

أبناء الزمان ، تحقيق : محمد محي الدين عبدالحميد ، (القاهرة ، مكتب النهضة المصرية ، ط 1 ، 1367 هـ

/ 1948 م) ، ج 1 / 76 .

(8) المرجع السابق ، ج 2 ، ص 471.

وقد قسمه عدة أقسام بدَّ سبب مناصب من ذكرهم ، فقسم للملوك والأمراء ،
وقسم للعمَّال ، وثالثاً لذوي الدَّباهة كالفُضاة والمتحقِّقين بعُ لوم القرآن والمحدثين
والفُهاء ومن إليهم⁽⁹⁾ .

ويمهد ابن الخطيب لمعجم تراجمه بمقدمة طويلة ، يتحدث فيها عن غرناطة ،
وما يتعلق بها من الأخبار والأوصاف والمعالم ، ويتناول وصفها وجغرافيتها
وخططها ومواقعها وما يحيط بها من المروج والجبال ، ثم يتناول تاريخها منذ نزل
بها العرب الأوائل ، وأخبار من كان بها من الكتاب والشعراء قديماً ، منذ عصر
الفتح ، حتى قيام الدولة النُصيرية⁽¹⁰⁾ .

ويبرز ابن الخطيب هذه التراجم بروزاً قوياً ، كما أنه يصور الكتاب والشعراء
في صور نقدية متباينة ، وكذلك يصور لنا الأمراء والسلاطين في مثل هذا التباين
والتنوع وفق أحوالهم ومميزاتهم ، وكل ذلك بأسلوب بليغ وشيق .

وتتبع معظم تراجم ابن الخطيب روح نقدية ، وتتجه أحياناً نحو المديح
والتقدير ، وأحياناً أخرى إلى الذم والانتقاص ، ويبدو ذلك بالاختصاص في تراجم بعض
الأمراء والوزراء الذين خرجوا على سلطانه الغني بالله ، ونزعوا عرشه .

ولابن الخطيب أسلوب لا ذع في النقد والهجاء وهو لا يُدجم أحياناً عن
تصوير خصومة بأقبح الصور⁽¹¹⁾ .

(9) ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج1 (مقدمة) .

(10) المصدر السابق؛ ص 161 ، 165 .

(11) عنان ، لسان الدين ابن الخطيب ، ص 27 .

ومن خلال عرضة لهذه التراجم يتناول ابن الخطيب تاريخ عصره ، وملوكه سواء في الأندلس أو المغرب بدقة وشمول ، مع وصف الأحداث السياسية والعسكرية بحسب خبرته وإطلاعه .

ويحرص ابن الخطيب على ذكر مصادر معلوماته ، وذكر المؤرخين السابقين له باحترام ، وهذا مما يدل على سعة إطلاعه وعمق معرفته ، وأمانته في النقل .

ومن الكتب التي اطلع عليها : تاريخ ابن حيان " المقتبس في تاريخ رجال الأندلس " وابن عذاري المراكشي " البيان المغرب " و ابن بسّام " الذخيرة في أخبار أهل الجزيرة " إلخ .

وهذا الكتاب يع تبر من الكتب النفيسة التي قدمها ابن الخطيب ، الذي كان كاتباً بديوان الإنشاء ، ثم وزيراً ، ثم رئيساً للوزارة ، ولبت أ عواماً طويلة يستأثر بالسلطة في بلاط غرناطة ، ويقف على سائر أحوالها وأسرارها ، ويتعرف على سائر أحوالها من قادة وكُتاب وشعراء ، وفي فترة مكوثه في المغرب منفياً ، يتعرف على سائر أحواله بالاتصال برجالاته وكتابه وشعرائه ، وبالتالي فإن ما يقدمه ابن الخطيب في الإحاطة عن تراجم وشخصيات تمتاز أخبارهم بالثقة والصحة وتقدم للمؤرخ مادة نفيسة يمكن الاعتماد عليها ، والوثوق بها⁽¹²⁾ .

وقد قام بدر الدين البشتكي (ت 830 هـ / 1426م) باختصار كتاب (الإحاطة) وسماه (مركز الإحاطة) أسقط منه أسماء السلاطين والأمراء ، وأبقى على أهل الأدب⁽¹³⁾ ، وتوجد هذه النسخة في مكتبة الخزانة العامة بالرباط ، تحمل رقم (650)⁽¹⁴⁾ ، وهو مهم ؛ لأنه نقل من النسخة الأصلية لكتاب الإحاطة .

(12) ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج1/ص 89 ، 93 .

(13) المقري ، نفع الطيب ، ج7/ص 102 .

(14) دويدري ، لسان الدين ، ص 107 .

وقد حقق الأستاذ محمد عبد الله عنان معظم أجزاء الإحاطة .

وقد انتهى ابن الخطيب من وضع هذا الكتاب حوالي سنة (772 هـ /

1370م)⁽¹⁵⁾ .

ويوجد للإحاطة عدة نسخ خطية موزعة في مكتبات إسبانيا والمغرب ومصر
منها مخطوط في إسبانيا يوجد في مكتبة الأكاديمية الملكية بمدريد تحمل رقم (34)
وأخرى بمكتبة الاسكوريال تحمل رقم (1673) وأخرى في مكتبة المجمع التاريخي
الإسباني تحمل رقم (142/534) ، كذلك هناك نسخ مخطوطة في مكتبة جامعة الحسن
الثاني في الدار البيضاء بالمغرب تحمل رقم (2704) ، ونسختان مطبوعتان بمكتبة
دار الكتب بالقاهرة⁽¹⁶⁾ .

وقد نشر د. عبد السلام شقور قطعة مفقودة من هذا الكتاب احتوى على 300 ترجمة
جعل عنوانها (ما لم ينشر من كتاب الإحاطة) هذه القطعة تحتفظ بها مكتبة
الاسكوريال في إسبانيا ، ونسخة من المكتبة الوطنية بمدريد..

2- كتاب اللمحة البدرية في الدولة النصرية :

وهو أصغر كتب لسان الدين ولكنه أكثرها فائدة ، وفيه أوجز تاريخ بني
الأحمر إلى أيامه ، فقد تناول في هذا الكتاب الحديث عن مملكة غرناطة وصفات
أهلها وعاداتهم ، وتاريخ ملوكها ، قال ابن الخطيب في مقدمة هذا الكتاب :
(... واطلعت منهم – أي ملوك بني نصر – في ليل الخبَر بدور غسق ، إذ كنت

(15) ابن الخطيب ، الإحاطة ، المقدمة .

(16) بناءً على ما ذكره العبادي ، في لسان الدين بن الخطيب ، ص 46 ، 47 ، وما ذكره في مقدمة ، نفاضة

الجراب ، المقدمة (ص3 ، 14)

جُهينة أخبارهم ، وقطب مدارهم ، وزمام دارهم ، فذكرت نبذاً من أخبار وطنهم الذي سكنوه، وأفقهه الذي حسنوه ، بسيرهم الحميدة وزينوه ، ، ومن اخص بهم من قاض وكاتب ووزير ، أو كان على عهدهم من ملك كبير ، أو حادث يليق بتخليد أو تسطير ، وسميته " اللمحة البيرية ، في الدولة النصرانية " .⁽¹⁷⁾

وهذا الكتاب يقع في جزء واحد ، ألفه في المغرب بعد نفيه هناك سنة

(760هـ / 1358م) وأتمه نهائياً بعد عودته إلى غرناطة.⁽¹⁸⁾

وهناك سببان لتأليف هذا الكتاب كما يقول المؤلف نفسه ، الأول : إعادة

الاعتبار والتذكير بسير الدول فيقول : ((فإن في تاريخ الدول عبرة لأولي النهى ،

وذكرى لمن غفل عن الله وسها ، لتحول الأحوال ، وتصير الرسوم إلى الزوال ،

وتلاعب زعازع الأهوال ...))⁽¹⁹⁾

الثاني : التسرية والإمتاع بكتابة الأخبار غير المدونة إلى عهده من تاريخ

ملوك الدولة النصرانية ((.... إلى إمتاع المجالسة ، وإتحاف المؤانسة ، عند

الملايسة ، - لاسيما - التاريخ الذي لم يهتد لضمه لديوان ، لقله عيان ، أو تأخر زمان ،

فالفوس إليه متطلعة ، وباجتلاء أنبائه متولعة))⁽²⁰⁾ .

وهذا الكتاب ينضوي في فن التراجم والسير ، وهو يتناول طبقة واحدة هي طبقة

(ملوك الدولة النصرانية) ، فيؤرخ لمؤسس هذه الدولة (أبي عبد الله محمد بن يوسف

الملقب بالغالبا بالله) في القرن السابع ، وينتهي بعهد سلطانه (محمد الغني بالله)

(17) ابن الخطيب ، اللمحة البيرية ، ص 16 .

(18) ابن الخطيب ، نفاضة الجراب ، هامش ص 343 .

(19) ابن الخطيب ، اللمحة البيرية ، ص 16 .

(20) المرجع السابق، ص 16 .

أوائل النصف الثاني من القرن الثامن الهجري ، مروراً بمن مع هؤلاء الحكام من قضاة ووزراء وقادة جيش ، وقد مهد ابن الخطيب هذه اللوحة بتمهيد مختصر تناول فيه ما يتصل بغرناطة من تاريخ وفضائل ، وما يرجع إليها من الأقاليم والأقطار ، والعيادات والعوائد التي تصف أهلها ، ثم تحدث في نسق الدول ، واتصال الأواخر منها بالأول .

وقد صاغ ابن الخطيب هذا الكتاب في نثر مرسل ، لا تشوبه عقبات السجع والتكلف ، وهو من أجمل نماذج النثر العربي ، كما يعتبر من أجود ما كتبه المسلمون في التاريخ لتوحي مؤلفه الصدق فيما نقل⁽²¹⁾ .

وكان الفراغ منه بداية سنة (765 هـ / 1363 م)⁽²²⁾ .

لقد نشر هذا الكتاب الأستاذ محب الدين الخطيب سنة (1374 هـ / 1959 م) بالقاهرة ، كما أعاد نشره وتحقيقه الدكتور محمد زينهم سنة (1425 هـ / 2004 م) .

3- كتاب نُفاضة الجراب في غلالة الاغتراب :

يتناول هذا الكتاب حياة ابن الخطيب في المغرب حين نفى إليه ، مع سلطانه ، سنة (760 هـ / 1358 م) .

أثر ابن الخطيب ، خلال هذه الإقامة أن يكون أكثر تحراً واستقلالاً ، فطلب من سلطان المغرب أبي سالم المريني أن يسمح له بالإقامة له في (سلا) " انظر الخريطة " بعيداً عن فاس " انظر الخريطة " ، فاستجاب السلطان لطلبه ، فتهياً بذلك

(21) تقي الدين عارف الدوري ، تاريخ المسلمين وحضارتهم في الأندلس (الخمس) ، جامعة ناصر ، ط 1 ، 1418 هـ / 1997 م ، ص 92 .

(22) ابن الخطيب ، اللوحة البديرة ، ص 128 .

للتعريف على أهلها ، والعكوف على تدوين ما يشاهده ، كما أتيح له التفرغ للعبادة والعلم والتأمل ، ثم اتجه بالرحلة إلى الجهات الغربية والجنوبية من البلاد ليطلع على طبائعها ، ويقف على مدافن صلاحائها، وبذلك وصف لنا ما شاهده في هذه البلاد مع ذكر الأحداث السياسية التي مر بها.(23)

ويبدأ ابن الخطيب كتابه بالحديث عن قبائل هذا القطر وشيوخهم وكيف استقبلوه ، واجتمع معهم ، كما وصف أنواع المآكل والمشرب التي قدموها له ، في جبل هنتاتة ومدينة أغمات (انظر الخريطة) ، والإكرام الذي أحيط به في ذلك المكان (24) .

وقد عنى ابن الخطيب في مواضع كثيرة من رحلته بوصف المنشآت والمؤسسات الدينية ، والاجتماعية ، كوصف المساجد ، والمدارس ، والزوايا (25) ، وغيرها ، كما سجل لنا الرسائل والقصائد التي بعث بها إلى سلطان المغرب ، ومعظمها يدور حول مدحه ومدح آبائه والترحم عليهم .

وبعد حديثه عن رحلته هذه ، ينتقل إلى فصل آخر من كتابه أسماء (إدالة الدولة بالأندلس ثانية) وهنا يتحدث عن الفترة المضطربة التي مرت بها مملكة غرناطة بين سنتي (760-763 هـ / 1358-1361 م) . من هذا نرى أن كلام ابن الخطيب عن أحداث هذه الفترة و شخصياتها ، له قيمته التاريخية باعتباره شاهد عيان لهذه الأحداث.

(23) ابن الخطيب ، نفاضة الجراب ، ص 81 ، 89 .

(24) ابن الخطيب ، نفاضة الجراب ، ص 46 وما بعدها .

(25) ينظر : ملحق رقم (6)

وبعد الحديث المفصل عن الأحداث السياسية لغرناطة ، ينتقل ابن الخطيب بعد ذلك الى فصل آخر من كتابه ، يتحدث فيه عن بعض مؤلفاته وقصائده التي كتبها في المغرب أثناء مقامه في مدينة سلا.

ثم يعود ابن الخطيب بالحديث عن التاريخ مرة أخرى فيتكلم عن نهاية سلطان المغرب أبي سالم المريني ، ويستعرض الأحداث الداخلية التي مر بها القبيل وصول أبي سالم حتى مصرعه أواخر سنة (762هـ / 1360م) .

ثم ينتقل بعد ذلك ، الى فصل جديد يتناول فيه العلاقات المغربية الغرناطية ، ومساعدة الأولى ، لسلطان غرناطة بالعبور إلى الأندلس .

ثم بعد ذلك ، يعرّف ابن الخطيب ليكمل حديثه عن المؤلفات والقصائد التي كتبها في المغرب في هذه الفترة – الحرجة- من حياته حتى نهاية الكتاب⁽²⁶⁾ .

يلاحظ في هذا الكتاب ، أن أسلوب ابن الخطيب الكتابي يذوّب عن أسلوب رحلاته الأخرى ، بمعنى أنه لم يتخذ طابع فن المقامات المعروف بالسجع والتقفية ، بل كان مرسلًا جزلاً .

وهذا الكتاب يقع في ثلاثة أجزاء المعروف منه الجزء الثاني ، ويوجد منه نسخة خطية وحيدة في مكتبة الاسكريال تحمل رقم (1755) ، وقد قام العالم الإسباني جيسار ريميرو بنشر جزء كبير منه سنة (1960م) بمدريد⁽²⁷⁾ ، كما قام أحمد مختار العبادي بتحقيق ونشر الجزء الثاني وذكر أنه عثر مؤخراً في مكتبة الرباط على الجزء

(26) ابن الخطيب ، نفاضة الجراب ، ص ص 43 ، 80 ، 54 ، 187 ، 213 ، 343 ، 369 .

(27) المصدر السابق ، ص 5.

الثالث منه وقد قامت مستشرقة إسبانية بنشره⁽²⁸⁾ ، أما الجزء الأول فهو مفقود ، وربما يكون قد أحرق مع كتبه بعد نكبته .

4- ربحانة الكتاب ونجعة المنتاب :

وهو من فريد مؤلفاته ، ويقع في ثمانية أسفار ، وهو عبارة عن نماذج من الترسيب المرصد مع المسجوع ، وهذه الرسائل تبدأ من سنة (750 هـ / 1349 م) ، وبعضها متأخر حوالي سنة (771 هـ / 1369 م) ، مما يدل على أن مواده ورسائله قد جمعت خلال إقامته في غرناطة أي أثناء وزارته الثانية للسلطان الغني بالله (764-772 هـ / 1362 - 1370 م)⁽²⁹⁾ ويتضمن هذا الكتاب عدداً كبيراً من الوثائق التاريخية المهمة ، منها ما يشمل الفتوحات ، ومنها رسائل السلطان الغني بالله إلى الشعب الغرناطي في الحث على الجهاد ، ومنها في باب " كتب الاستظهار على العدة والاستجداد " كما يشمل وثائق تاريخية ورسائل عن غزوة قرطبة ، كما جمع فيه وثائق دستورية وإدارية تتعلق بالتعيينات في المناصب المختلفة كتعيين قاضي الجماعة أو تعيين منصب خطابة الجامع ، ومراسيم البيعات السلطانية ، كذلك كتب التهاني⁽³⁰⁾ .

وعن سبب هذه التسمية يقول ابن الخطيب : ((وسميته لتنوع بساتينه المشوقة وتعدد أفانيه المعشوقة ، " ربحانة الكتاب ونجعة المنتاب " وقسمته إلى حمدة ديوان ، وتهيئة بإخوان ، وتعزية في حرب للدهر عوان ، وأغراض ألوان ، وفتوح

(28) العبادي ، في تاريخ المغرب والأندلس ، ص 104 .

(29) المصدر السابق ، ص 5 .

(30) المصدر السابق ، ص 116 ، 326 ، 359 ، 375 ، 418 .

يجليها السلوان ، ومخاطبات إخوان ، وغير ذلك من أغراض ألوان صنوان وغير
صنوان)).⁽³¹⁾

ويبدأ ابن الخطيب كتابه بإعطاء نبذاً من مقدمات كتبه ورسائله السابقة
مثل " بستان الدول " ، و " جيش التوشيح " ، و " الإحاطة " ، و " روضة التعريف
بالحب الشريف " ⁽³²⁾ ، وغيرها ، ثم يلي ذلك أبواب التحميدات والفتوحات ،
والصدقات ، والبيعات ... الخ ، كما يشمل المراسلات السلطانية التي دارت بين ملوك
عَرَبُاطة وملوك الدول المجاورة ⁽³³⁾ ، ومعظمها من إنشاء ابن الخطيب .

ولهذا الكتاب أسلوب أدبي وإنشائي متميز ، ميزه عن غيره من المؤلفات ،
فهو يقدم نماذج رائعة للرسائل الملوكية ، والأميرية ، والدبلوماسية ، وأساليب
الأدعية والتحيات الملوكية ، والمراسيم الدستورية والإدارية في الأندلس في القرن
الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي ، بقلم أكبر وزير وكاتب في الأندلس .

وهذا الكتاب يعتبر أهم كتب ابن الخطيب التاريخية والأدبية بعد الإحاطة .

وتوجد منه عدة مخطوطات وهي : مخطوط بمكتبة الاسكريال تحمل رقم

(1820) .

- مخطوط بالخزانة الملكية المغربية بالرباط وهي تحمل رقم (2195) .

- مخطوط بمكتبة الفاتيكان الرسولية تحمل رقم (252) .

(31) المصدر السابق ، ص 4 .

(32) المصدر السابق ، ص 22 .

(33) المصدر السابق ، ص 140 .

- مخطوط بدار الكتب بالقاهرة تحمل رقم (19875) .

وقد قام المستشرق جسبار ريميرو بترجمة عدد كبير من رسائل الريحانة إلى اللغة الإسبانية تحت عنوان (المراسلات الدبلوماسية بين غرناطة وفاس في القرن الرابع عشر) وذلك سنة (1331 هـ / 1912م)⁽³⁴⁾.

ثم قام بنشر وتحقيق هذا الكتاب محمد عبدالله عنان سنة (1140 هـ / 1980 م) ، مكتبة الخانجي ، القاهرة .

5- كتاب كُنَاسَةَ الدِّكَانِ بَعْدَ انْتِقَالِ السُّكَّانِ :

وهو عبارة عن وثائق أو رسائل سلطانية ، تبلغ خمساً وعشرين رسالة ، كتبها ابن الخطيب على لسان سلطانه أبي الحجاج يوسف الأول ، إلى سلطان المغرب أبي عنان فارس المريني ، وأغلب هذه الرسائل ، وردت في كتابه السابق ، ريحانة الكتاب ، وسماه بهذا الاسم ، مشيراً إلى الظروف السياسية العصبية التي تمر بها غرناطة⁽³⁵⁾ ، وكناسة الدكان ، بمعنى إ خلاء الأندلس من العرب المسلمين ، والكتاب عبارة عن ، مقدمة قصيرة جداً ، أشار فيها الى مضمون الكتاب والفترة التي جمعه فيها ، وهي فترة النفي الأولى التي قضاها بسلا بالمغرب، وثلاثة أقسام ، القسم الأول عبارة عن وثيقة زواج نصري جرت رسومه في قصر الحمراء في غرناطة سنة (753 هـ / 1352م) بين السلطان أبي الحجاج يوسف الأول ملك غرناطة ، بصفته ولياً على أخته وبين الرئيس والقائد أبو الحسن بن جعفر بن نصر ، موضّحاً في هذه الوثيقة تاريخ الملوك الأوائل من بني الأحمر ، مشيراً بدفاعهم عن مملكتهم .

(34) هذه الأرقام بناءً على ما جاء في مقدمة كتاب ريحانة الكتاب، ص 6 ، 11 .

(35) ابن الخطيب ، كُنَاسَةَ الدِّكَانِ ، ص 6 .

أما القسم الـ ثاني والثالث ، فهما مجموعة من الرّسائل تبلغ خمساً وعشرين رسالة توضح العلاقات الدبلوماسية بين غرناطة والمغرب ، من إنشاء الوزير المؤرخ ابن الخطيب ، وقد كانت هذه العلاقات تتسم بالودّ والصّفاء.

لقد قام الدكتور محمد كمال شبانة بتحقيق ونشر هذا الكتاب سنة (1386 هـ /1966م) نشرته دار الكتاب العربي ، القاهرة ، وذكر أنه لم يجد سوى مخطوطة يتيمة بمكتبة الاسكوريال بمدريد تحت رقم 1712 ، وهي التي نقل عنها⁽³⁶⁾ .

6- كتاب أعمال الأعلام فيمن بويغ قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يجر ذلك من شجون الكلام :

ويعتقد أن هذا الكتاب هو آخر مؤلفات ابن الخطيب قبل مقتله ، وقد كتبه في المغرب بعد وفاة السلطان عبد العزيز المريني سنة (774 هـ / 1372م) ، وتولية ابنه الطفل أبي زيان محمد السعيد مكانه ، ونظراً لكثرة الأمراء الطامعين في عرش هذا الطفل ، ألف ابن الخطيب هذا الكتاب تقريباً إليه، كما كان يرمي الى توطيد مركز راعيه الوزير أبي بكر بن غازي القائم بالدولة ، وبالتالي ليضمن حياته في ظلهم .

أي أن هذا الكتاب أُلّف في الفترة ما بين (774- 776 هـ / 1372 – 1374م) .

ويعتبر هذا الكتاب هو تاريخ عام للعالم الإسلامي ، فهو تاريخ لحكام المسلمين ورؤسائهم في المشرق والمغرب ، جامعاً فيه بين السلاطين كبارهم وصغارهم ، ولكنه ركز على " من بويغ قبل الاحتلام " ، ويقع الكتاب – بحسب تصنيف مؤلفه –

(36) المصدر السابق، ص ص 44 ، 53 ، 57 ، 11 مقدمة المحقق .

في ثلاثة أقسام : يتناول في **القسم الأول** تاريخ المشرق الإسلامي ، من السيرة النبوية حتى عصر المماليك .

القسم الثاني : هو تاريخ عام للأندلس من الفتح العربي سنة (92 هـ / 710 م) حتى عصر ابن الخطيب القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي ، بالإضافة إلى تاريخ الممالك المسيحية الإسبانية مثل : قشتالة، أراجون، والبرتغال ، وقد قام المستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال بنشر هذا الجزء سنة 1934 م⁽³⁷⁾ .

أما القسم الثالث^(*) : فهو يتكلم فيه عن تاريخ المغرب العربي من برقة شرقاً، إلى البحر المحيط (المحيط الأطلسي) غرباً حتى بداية عصر الموحدين.

يبدو أن ابن الخطيب قتل قبل إتمام القسم الثالث والأخير من كتابه .

وقد كان ابن الخطيب في كتابه هذا – لا يدع مناسبة تمر دون إجراء مقارنة بين أحداث الماضي والأحداث الجارية في زمنه ، فكان أسلوبه – كما اعتدنا في مؤلفاته الأخرى – أسلوباً نثرياً مرسلاً جزلاً ، وعبارته سهلة ميسورة إجمالاً .

وتوجد من هذا الكتاب عدة نسخ خطية ، نسخة توجد بمكتبة المجمع التاريخي بإسبانيا تحمل رقم (155) .

ونسخة توجد في مكتبة جامعة القرويين بفاس تحمل رقم (1286) .

(37) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام .

(*) يذكر احمد مختار العبادي ، أنه قام بنشر وتحقيق هذا الجزء (الدار البيضاء ، مدار الكتاب ، ، سنة 1384 هـ / 1946 م) ، ينظر: العبادي ، لسان الدين بن الخطيب ، ص 404.

وأخرى توجد في مكتبة جامع الزيتونة بتونس تحمل رقم (4936).⁽³⁸⁾

وقد نشر المستشرق ليفي بروفنسال الجزء الثاني بالرباط سنة (1353 هـ /

934 م) وفي بيروت سنة (1379 هـ / 1956 م).

ولم يهمل ابن الخطيب موضوع السياسة في كتاباته ، فقد كانت من الموضوعات المحببة إليه ، وفيها كتب عدداً من المؤلفات والرسائل مثل : كتاب " بستان الدول " وهو أ رجوزة في السياسة ، ورسالة بعنوان (الإشارة إلى أدب الوزارة) ، وهو يتحدث عن الجوانب السياسية وخاصة الوزارة وما تقوم به من أعباء .

وقد كتبت الدكتورة (وداد القاضي) بحثاً عن جوانب من الفكر السياسي لدى لسان الدين بن الخطيب ، درست فيه أبعاد فكره السياسي من خلال (ما قامته في السياسة) ، ومقامة (الإشارة إلى أدب الوزارة) ، و أكدت مع التسليم ، بأصالة ما كتبه وحرره ، وبمطالعته الواسعة وتجربته الخصبية في السياسة ، وبروعة بيانه وتصويره.⁽³⁹⁾

ثانياً : اهتمامه بالجغرافيا :

كما عُرف ابن الخطيب مؤرخاً ، عُرف كذلك جغرافياً ، ذلك أن التاريخ والجغرافيا علمان متلازمان ، ومكملان بعضهما بعضاً ، وابن الخطيب اهتم بهذا العلم اهتماماً كبيراً – كـ يف لا وقد عاش متنقلاً بين مدن غرناطة ، وكذلك بين غرناطة

(38) هذه الأرقام بناءً على ما جاء في مقدمة كتاب أعلام الإعلام التي ذكرها ليفي بدوفنسال (ص 1-ص 2).

(39) وداد القاضي ، _____ جوانب من الفكر السياسي لسان الدين بن الخطيب ، مجلة الفكر العربي ، العدد 23 ،

(بيروت، معهد الإنماء العربي 1403 هـ / 1981 م)، ص 173 .

والمغرب – وبالتالي كان يركز على الوصف الجغرافي للأماكن التي يتحدث عنها
ويجعل هذا الوصف مدخلاً لبحثه التاريخي ، وهذا ما فعله في حديثه عن غرناطة في
مقدمة كتابه (الإحاطة) وكذلك كتابه (نفاضة الجراب)⁽⁴⁰⁾.

وكان له في وصف رحلاته أكثر من رسالة وهي كالاتي :

- المقدمة الجغرافية لكتاب الإحاطة ، كما أشرنا .
- المقدمة الجغرافية لكتاب اللحة البدرية في الدولة النصرية.
- رسالة خطرة الطيف في رحلة الشتاء والصيف .
- رسالة معيار الإختيار في ذكر المعاهد والديار.
- وصف رحلته للمغرب في مقدمة كتابه نفاضة الجراب المشار إليه سابقاً .
- مقامة المفاخرة بين مالقة وسلا.

وهذه الكتب تتفاوت من حيث قيمتها العلمية وطرزها الأدبي الخاضع للسجع

والزينة اللفظية ، وفيها يعرض ابن الخطيب مهارته في النثر الأدبي.⁽⁴¹⁾

(40) ينظر : ابن الخطيب ، مقدمة الإحاطة و مقدمة نفاضة الجراب .

(41) العبادي ، لسان الدين بن الخطيب ، ص 46.

كقوله عن (بسطة) (انظر الخريطة) : ((وما بسطة بلد خصيب ، ومدينة لها من اسمها نصيب ، دوحها مُتَدَلِّ ، وطيب هوائها غير متبدل ، وناهيك من بلد اختص أهله بالمران في معالجة الزعفران ، وامتازوا به عن غيره من الجيران ... إلخ))⁽⁴²⁾ .
وقد جمع الدكتور أحمد مختار العبادي أربعاً من هذه الرسائل الجغرافية في كتاب : عنوانه (مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب و الأندلس) قامت بنشره جامعة الإسكندرية سنة (1378 هـ / 1958 م)⁽⁴³⁾ .

1- المفارقة بين مدينة مالقة وسلا (44) :

وهي من المقامات الجغرافية ذات الأهمية الكبيرة ، وقد اقتصر على مدينتين ، هما مالقة في الأندلس وسلا في المغرب ، وفيها يعقد ابن الخطيب مقارنة أو مفاضلة بين المدينتين ، حيث أشار في مقدمتها أن واحد دأ من أصدقائه طلب منه أن يفاضل بين مالقة موطن ابن الخطيب ، وبين سلا المغربية التي استوطنها مؤقتاً .

ونرى في هذه المقارنة أن ابن الخطيب يرمي إلى تفضيل الأندلس على المغرب ، فهو يُثنى ويعظم مالقة ، في الوقت الذي يقلل فيه من شأن (سلا) ، ويصف ما تتمتع به مالقة من موقع جغرافي ممتاز وعن خصوبة تربتها ، وما تتمتع به من ثروات طبيعية ، بعكس سلا ، فيقول عن كل من مالقة وسلا :

(42) ابن الخطيب ، معيار الاختيار ، في ذكر المعاهد والديار ، تحقيق محمد كمال شبانة ، (القاهرة ، مكتبة الثقافة الدينية ، 1963 هـ / 2002 م) ، ص 109 .

(43) حسين مؤنس ، تاريخ الجغرافيا والجغرافيون في الأندلس ، (مدريد ، مطبعة معهد الدراسات الإسلامية ، 1386 هـ / 1967 م) ، ص 572 .

(44) ابن الخطيب ، مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في المغرب والأندلس ، تحقيق : أحمد مختار العبادي ، (الإسكندرية ، مطبعة الجامعة ، 1378 هـ / 1958 م) ، وكذلك : الإسكندرية ، منشورات مؤسسة شباب الجامعة ، 1404 هـ / 1983 م) ، ص 57 ، 66 .

أما مألقة ((... خص الله مألقة بما افترق في سواها ، ونشر بها المحاسن التي طواها ، إذ جمعت بين رمث الرمال وخصب الجبال ، وقامرة^(*) الفلاحة المخصصة بالاعتدال، ... وسهلها قصور وبساتين ، وبحرها حيتان مرتزقة في كل حين))⁽⁴⁵⁾.

وعن سلا يقول : ((وسلا بلد الرمال ، ومراعي الجمال ، بطيحة لا تنجب السنابل ، وواديها ملح المذاق ، ... عُدمت الفاكهة ، والمُتَنَزَّهات النابهة))⁽⁴⁶⁾.

و من باب الوفاء لا ينسى ابن الخطيب في نهاية الوصف أن يثني على (سلا) التي اتخذها داراً لمهجره ، بعد هروبه من الأندلس وذكر أنه ((لا يعد من أيام عمره إلا أيامها))⁽⁴⁷⁾.

وهذه المفاضلة تشمل على كثير من الأوصاف والتصورات الواقعة لأحوال المدينتين الطبيعية من مناخ وسهول وجبال وأودية ، والحضارية من بناء وعمارة ، وحصون وأسوار ومنعة عسكرية فيقول : ((الأمور التي تتفاضل بها البلدان ، وتتفاخر منها به الأخوان ، و تعرفه حتى الولائد والولدان ، هي المنعة والصنعة والبقعة والشنعة^(**) ، والمسكن والحضارة ، والعمارة والإثارة والنضارة))⁽⁴⁸⁾.

(*) القامرة : مخازن المحصولات الزراعية ، والمقصود هنا التربة الخصبة المنتجة ، المصدر السابق ، ص 60 هامش (1).

(45) ابن الخطيب ، مشاهدات لسان الدين ، ص 60 .

(46) ابن الخطيب ، مشاهدات لسان الدين ، ص 62.

(47) ابن الخطيب ، أعمال الإعلام ، ص 576.

(**) الشنعة : أي الفضاعة ، ينظر : الطاهر أحمد الزاوي ، مختار القاموس ، الدار العربية للكتاب ، (د. م) ،

(1393 هـ / 1984 م) ، ص 340 .

(48) ابن الخطيب ، مشاهدات لسان الدين ، ص 57.

ومهما يكن من أمر ، فإن هذه المقامة في المفاخرة تحمل في طياتها معلومات ذات قيمة تاريخية وجغرافية فية عاشها ابن الخطيب عن قرب ، وأصدر أحكامه عن معرفة حقيقية للبلدين ، ومن معايشة فعلية للأحداث التي تمت بها المقارنة والمفاضلة .
ومن الطريف ، أن ابن الخطيب قد عاد في مقامة أخرى ، فأثنى على (سلا) ثناءً جميلاً ، في مواضع كثيرة من آثارها ، كيف لا وقد آوته في فترة من فترات حياته ، فأنصفها في مقامة ((معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار))⁽⁴⁹⁾ .

وقد قام غرسية غومس بـ ترجمة هذه الرسالة إلى الإسبانية وعلق عليها سنة (1353هـ/1934م) .

كما قام أحمد مختار العبادي بنشرها ضمن رسائل ابن الخطيب في (مشاهدات لسان الدين بن الخطيب) .⁽⁵⁰⁾

2- خطرة الطيف في رحلة الشتاء والصيف :

وهي عبارة عن مقامة جغرافية ، تصف رحلة ابن الخطيب مع سلطانه أبي الحجاج يوسف بن نصر سنة (748 هـ / 1347 م) ، وهي رحلة تفقدية إلى بعض المدن والأقاليم الأندلسية التابعة لمملكة غرناطة.⁽⁵¹⁾

وهذه الرحلة هي من الرحلات الرسمية التكليفية ، اندمج فيها ابن الخطيب ، وألم بالكثير من أحداثها ومجرياتها ، واستطاع أن يتبع خطوات المركب السلطاني ، وتدوين الأحداث التي مر بها ، وقد دامت هذه الرحلة حوالي أسبوعين .⁽⁵²⁾

(49) ابن الخطيب ، معيار الاختيار ، المصدر السابق ، ص 144 .

(50) مؤنس ، تاريخ الجغرافيا ، ص 575 .

(51) مؤنس ، تاريخ الجغرافيا ، ص 35 ، 593 .

(52) المصدر السابق ، ص 573 .

وقد مر هذا الموكب بعدة مناطق منها : وادي آش ، و بسطة ، وبرشانة (انظر الخريطة) و بلدة بيرة (VERA الحالية) ، وغيرها من المناطق ، وقد عُني الرحالة ، ابن الخطيب ، بوصف حركة الموكب السلطاني في تلك المناطق التي تفقدها ، وما صاحب ذلك من مراسم الاحتفال والاستقبال ، ومدى جمالها وروعها في ظل الطبيعة التي اكتست بها المدن الأندلسية من جبال ، وروابي ، ووديان ، كما تحدث عن أحوال الناس ، وما رأى من العمران والحصون ، وما إلى ذلك⁽⁵³⁾ .

فيقول : ((و استقبلنا البلدة – حرسها الله – ... وجمالها نادى بأهل المدينة ، موعدكم يوم الزينة، فسمحت الحجال برباتها ، والقلوب بحباتها ، والمقاصر بحورها ، والمنازل ببدورها ، فأينما تزام الكواكب بالمناكب ، وتدافع البذور بالصدور ، بيضاء كأسراب الحمام ...))⁽⁵⁴⁾ .

يلاحظ هنا دقة ابن الخطيب في وصفه لهذه الرحلة القصيرة ، ويركز في ذكر كل ما تقع عليه عيناه ، وهذا ما يجعل أن كلام ابن الخطيب ذو قيمة جغرافية وتاريخية يمكن للباحث الاستفادة منه.

وتوجد نسخة خطية من هذه الرسالة في مكتبة الاسكريال تحمل رقم (470) ، فقد قام المستشرق مولر بنشرها في كتابه المعروف باسم (نخب من تاريخ المغرب العربي) سنة (1283 هـ / 1866 م) ، موينخ .

ثم نشرها مختار العبادي في كتاب (مشاهدات لسان الدين ، السالف الذكر)⁽⁵⁵⁾ .

(53) مؤنس ، تاريخ الجغرافيا ، ص 573.

(54) ابن الخطيب ، مشاهدات لسان الدين ، ص 37.

(55) مؤنس ، تاريخ الجغرافيا ، ص 272 الهامش.

3- مقامة معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار :

وتوصف أحياناً بالكتاب ، وهي أقرب إلى طريقة المقامات ، فهي مقامة من الطراز الأصيل ، وتنقسم هذه المقامة إلى مجلسين لكل منهما بطل من أبطال المقامات – أي المجلس أو الدواة - دون أن يضع لهما ابن الخطيب أسماء .⁽⁵⁶⁾

الأول : رحالة مغامر لا يتردد في الإلقاء بنفسه في المخاطر ، والثاني : طبيب ساحر وعالم لا يستعصى عليه مرض ، أو يعجزه الجواب على سؤال ، الأول ، يتحدث عن المدن الأندلسية ، والثاني عن المغربية.

ويصف من خلال حكايات أبطاله ومشاهداتهم أحوال الأقطار والأقاليم والقرى والعمائر التي مرَّ بها وما لاحظه من أخلاق أهلها وطبائع سكانها ، وأحوالهم الاقتصادية ، والاجتماعية.

وقد وصف بطلا هذه المقامة ، أو بالأصح قلم لسان الدين ، البلاد الأندلسية والمغربية (المرينية) ، وصفاً جغرافياً دقيقاً ، مما جعل من مقامته هذه ذات قيمة فنية وعلمية تزيد كثيراً عن قيمة سابقتها (المفاخرة ... و خطرة الطيف) ، غير أنه أغرقها بالكثير من المترادفات والألفاظ المسجوعة⁽⁵⁷⁾ ، كقوله عن المريية .

((المريية هنية مريية ، بحرية برية ، أصلية سرية ، معقل الشموخ والإباية ، ومعند المال وعنصر الجباية ، وحبوة (الزحف) الأسطول ، غير المعقل بالنصر ولا الممطول))⁽⁵⁸⁾ .

(56) ابن الخطيب ، معيار الاختيار ، ص 71 .

(57) مؤنس ، تاريخ الجغرافيا ، ص 581 .

(58) ابن الخطيب ، معيار الاختيار ، ص 100 .

أما عن سلا ، فيقول .

((العقيلة المفضلة ، والبطيحة المخضلة ، والقاعدة المؤصلة ، والسورة
المفضلة ، ذات ا لوسامة والنضارة ، والجامعة بين البداوة والحضارة ، معدن القطن
والكتان ، والمدرسة والمارستان ، والزاوية كأنها البستان))⁽⁵⁹⁾.

يُرى في طيات هذا الحديث الفضفاض علماً واسعاً بهذه البلاد ، وهو كنز مهم
عن جغرافية الأندلس والمغرب . وقد كتب ابن الخطيب هذه المقامة ، أثناء إقامته في
سلا ، أي خلال سنتي

(760هـ - 763 هـ / 1358 - 1361 م).⁽⁶⁰⁾

ويلاحظ عبر ما ألفه ابن الخطيب ، في الجغرافيا أنه كان رجلاً فطناً ،
حريصاً على أن يعرف ويدرس ، دقيق الملاحظة ، متفتح الذهن لا يفوته شيء مما
يرى ويسمع ، لذلك استطاع أن يجمع ثروة جغرافية عن الأندلس والمغرب .

كما يلاحظ ، أن ابن الخطيب يميل في كتاباته إلى التنسيق وإيثار السجع ،
ويثقل أسلوبه كثرة الصور والاستعارات ، كما يعتمد إلى البديع والمحسنات اللفظية
ليزين بها عباراته ، مما أدى إلى الإطالة والإطناب في رسائله .

(59) ابن الخطيب ، معيار الاختيار ، ص 205 .

(60) العبادي ، لسان الدين ، عالم الفكر ، ص 47 .

ويوجد مخطوط هذه الرسالة في مكتبة الاسك ريال تحمل رقم (1777) ، كما توجد
نسخ خطية أخرى في خزانة الرباط بالأرقام الآتية (972 ، 1092 ، 1421 ،
D: 184)⁽⁶¹⁾.

وقد نشرة هذه الرسالة مطبوعة أحمد اليمني بفاس سنة (1325 هـ / 1907 م) ، ثم
قام بنشرها من جديد العبادي ضمن رسائل ابن الخطيب في (مشاهدات لسان الدين)
سنة (1378 هـ / 1958 م) ، الإسكندرية⁽⁶²⁾.

(61) هذه الأرقام بناءً على ما ذكره الدكتور أحمد مختار العبادي في كتاب نفاضة الجراب ، ص
(الهامش). 122.

(62) المصدر السابق، ص 22 الهامش.

ثالثاً : نبوغه في النثر والشعر ونظم القصائد والموشحات :

يُعدّ ابن الخطيب ، أيضاً من أبرز كتاب عصره وشعرائه ، بل كُتّاب الأندلس وشعرائها ، فقد وصل في النظم والنثر مرتبة التفوق التي لم يصل إليها إلا القليل ، وما يميز شعره ونثره هو وفرة التنوع والتنقل في الموضوعات والمعاني ، ومرجع ذلك إلى تنوع حياته المليئة بمختلف الأحداث والمحن.

فقد كان ابن الخطيب يميل في كتاباته إلى التتميق وإيثار السجع ،⁽⁶³⁾ ويثقل أسلوبه كثرة الصور والإستعارات ، وكان يعتمد إلى البديع والمحسنات ، ليتخذها حلية يجمل بها ألفاظه ، ويرصع عباراته ، وكان يغلب عليها الإطالة والإطناب ، وهذا هو الغالب في رسائله ، بل كان هذا أسلوبه الإنشائي في ترجماته وكتبه.⁽⁶⁴⁾

قال عنه ابن خلدون :

((وبرز في الطب وانتحل الأدب ، وأخذ عن أشياخه ، وامتأل حوض السلطان من نظمه ونثره ، مع انتقاء الجيد منه ، وبلغ في الشعر والترسل حيث لا يجاري فيهما ، ومأل الدولة بمذائحه ، وانتشرت في الآفاق قدماه))⁽⁶⁵⁾.

ومن أبرز سمات رسائله أنه مطيل يميل إلى الإسهاب والإكثار ، قال عنه بعض علماء المشرق : ((هو خليق بالتعظيم ، جدير بالتكريم والتمجيد ، فهو شاعر مُفَلِّق ، وخطيب مصقع ، وكاتب مترسل بليغ))⁽⁶⁶⁾.

(63) شوقي ضيف ، الفن ومذاهبه في النثر العربي ، (بيروت ، مكتبة الأندلس ، ط2 ، 1376 هـ / 1956 م) ، ص251.

(64) أنيس المقدسي ، تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي ، (بيروت ، دار العلم للملايين 1380 هـ / 1960م) ، ص308.

(65) ابن خلدون ، كتاب العبر ، ج7 / ص332.

(66) المقرئ ، نفع الطيب ، ج6 / 269 ص.

ومن أمثلة رسائله رسالة عن سلطانه ابن الأحمر إلى المستنصر بالله أمير
الموحدين ، وهي طويلة ، ويبدأها بوصف الأميران والدعاء لهما فيملاً نحو ثلاث
صفحات كبيرة في مثل قوله : ((... فامتزجنا بعلائها المنيف ، وولائها الشريف ، كما
امتزج الماء والسلاف ، وثناؤنا على مجدها الكريم ، وفضلها العميم ، كما تأرجت
الرياض الأفواف ، لما زارها الغمام الوكاف ...))⁽⁶⁷⁾ .

ومما تقدم ، فهو يذكر العهود بين البلدين ، ويصف ويثني على المغرب .

ثم يصف كتاب الأمير فيطيل ويتقنن في نحو ثلاث صفحات كقوله : ((والله
من قلم دبج تلك الحلل ، ونقع بمجاج الدواة المستمدة من عين الحياة الغلل ، فلقد
تخارق في الجود ، مقتدياً بالخلافة التي خلد فخرها في الجود ، فجاد بسر البيان
ولبابه ...))⁽⁶⁸⁾ . والرسالة على هذا النحو ، فهو مع إطالته في الوصف لا يطيل
العبارات وإنشائه مستساغ حسن الإيقاع .

فقد برع ابن الخطيب في لغته التي صاغ بها ما نثره ، وأدهش بأسلوبه أهل
عصره ، فقال عنه ابن خلدون (ت 808 هـ / 1406م) : ((صدرت عنه غرائب من
الترسيل في مكاتبات جيرانهم من ملوك العدو))⁽⁶⁹⁾ .

وبلغ من أثر ابن الخطيب ، في عصره وما تلاه من عصور ، أن اتخذ الكتاب
في المغرب نثره نهجاً يقتفونه ، ويدرسونه ، وكان لكتاب (ريحانة الكتاب ونجعة

(67) أبو العباس أحمد القلقشندي (ت 821 هـ / 1418م) ، صيح الأعشى في صناعة الإنشاء ، تحقيق : يوسف

علي الطويل ، (بيروت ، دار الفكر ، 1399 هـ / 1978م) ، ج6 / 536 ، 558 .

(68) المصدر السابق ، ص 550 .

(69) ابن خلدون ، العبر ، ج 7 / ص 332 .

المنتاب) أبعد الآ ثار من كُتب من جاء بعده ، فكانوا يعودون إليه ، وينهلون منه ،
واتخذوه قدوة وإماماً يقلدونه في كتاباتهم.⁽⁷⁰⁾

أما ابن الأحمر (ت 810 هـ/1407م) فقد قال عنه : ((شاعر الدنيا وعالم
المفرد والثنا ، وكاتب الأرض إلى يوم العرض))⁽⁷¹⁾.

ووصف المقرئ (ت 1041 هـ/1631م) نثره قائلاً : ((أما نثره فهو البحر
الزّخار ، بل الدر الذي به الافتخار))⁽⁷²⁾.

وما جعل لسان الدين أن يصل إلى هذا المستوى في كتابة رسائله ، عدة
روافد ثقافية، ساهمت في إثراء لغته بشواهد نصية دعمت أفكاره ، ونقصد بهذه
الروافد الفنون والعلوم ، التي برع فيها ، فكما نعلم أن لسان الدين درس منذ صغره
الثقافة الإسلامية ، من حفظ القرآن الكريم وفقه وأصول الدين و علم الحديث
ومصطلحاته ، وعلم التفسير وعلم القراءات ، وغير ذلك من العلوم الإسلامية التي
بدورها صقلت عقله وذهنه ، وبالتالي انعكست على فنون نثره ، كذلك اهتمامه باللغة
العربية ودراستها على أيدي علماء وأدباء معروفين في غرناطة ، أيضاً منصبه الذي
وصل إليه ، واتصاله بالبلدان المجاورة ، ومعايشة الأحداث عن قرب .⁽⁷³⁾

كما تميز بثقافة علمية متنوعة كمعرفته الدقيقة بعلم الطب ، والجغرافيا ، هذه
الثقافات المتنوعة ، ظهر أثرها على كثير من أدبه النثري ، الذي اشتمل على الرسائل

(70) المقرئ ، نصح الطبيب ، ج 6/ص 164.

(71) ابن الأحمر ، نثر الجمان ، ص 243.

(72) المصدر السابق، ص 164.

(73) أحمد ضيف ، بلاغة العرب في الأندلس ، (القاهرة ، مطبعة الاعتماد ، ط 2، 1356 هـ / 1938م)، ص

الديوانية والإخوانية ، والمزاوجة ، وفن التراجم والنقد ، وفن المقامات والرحلة ، كل هذه الروافد جعلته إمام النظم والنثر في ذلك العصر.

أما الشعر فقد برع ابن الخطيب في نظمه ، كما أبدع في نثره ، وكان شعره في بداية حياته ، تبدو عليه آثار التكلف والعسر ، ومضى في تجربته الشعرية ، حتى روض نفسه على صناعة الشعر ، واطاعته القوافي ، و بعد طول المحاولة استطاع أن يكون في عصره شاعر الأندلس والمغرب.⁽⁷⁴⁾

وكانت مملكة غرناطة ، هي المنبع الذي يستمد منه ابن الخطيب ، زاده وإلهامه في كل قصيدة ينشدها ، وكان يرتقي بشعره و يسمو إلى آفاق بعيدة ، ولم يكن ابن الخطيب في شعره سياً سياً ، كما لم يكن فيه مؤرخاً ، بل كان فيما يقدمه رؤى شاعر ترصد الأحداث عن قرب.

إن لابن الخطيب الكثير من القصائد ينافس بها من سبقه من الشعراء ومن عاصرهم ، من حيث أغراضه وموضوعاته ، ومستواه الفني ، وكان شعره يتحول في بعض الأحيان إلى وثيقة تعكس أوضاع العصر السياسية والاجتماعية والأخلاقية.

وهذا يدل على مقدرته الفائقة في تطويع الأدب للسياسة والسياسة للأدب.⁽⁷⁵⁾

وكان شعره يشمل المديح ، والغزل ، والزهد ، والتصوف ، والمدائح النبوية ، ويستعرض في سائر قصائده براعة في ابتكار المعاني واختيار الألفاظ.⁽⁷⁶⁾

(74) عبدة عبدالعزيز فلقيلة ، خط سير الأدب العربي ، (القاهرة ، دار الفكر العربي 1411 / هـ 1990م) ، ص466.

(75) عبدالعزيز عتيق ، الأدب العربي في الأندلس ، (بيروت ، دار النهضة العربية (د.ت) ص 499.

(76) المقدسي ، تطور الأساليب النثرية ، ص 308 .

وكانت له أبيات متفرقة أحياناً ، و قصائد مطولة أحياناً أخرى ، وكانت أغلب قصائده تفيض بعناصر المأساة ، والسبب في ذلك ما كانت تمر به الأندلس من أهوال الممالك المسيحية التي تهدد بسقوطها ، وما حل به هو أيضاً من ظلم وغدر فقد كان شعره يمثل عصره ، وما اشتمل عليه من انتصارات وإخفاقات.

وقد كان ابن الخطيب معجباً بشعره أشد الإعجاب ، يصل أحياناً إلى حد الغرور ، ويُظهر اعتزازه بنفسه في بعض قصائده⁽⁷⁷⁾ ، كقوله :

دُونِكَمَا مِنْ بَحْرٍ فِكْرِي جَوَاهِرًا TM ~ نُقِلَذَ فِي نَحْرٍ وَتُنْظَمُ فِي عَقْدٍ

رَكِضْتُ بِهَا خَيْلُ الْبِدِيهَةِ جَاهِدًا TM ~ وَأُسْمِعْتُ إِذَانَ الْمَعَانِي عَلَى بُعْدٍ⁽⁷⁸⁾

وكانت له الكثير من القصائد من أروع ما عرف في ميدان الشعر الأندلسي ، فقد برع في المدائح النبوية : حيث قال :

بِئُورِكَ نُورَ اللَّهِ قَدْ أَشْرَقَ الْهُدَى TM ~ فَأَقْمَرُهُ وَضَاحُهُ وَنَجْوَمُهُ

وَلِي يَا رَسُولَ اللَّهِ فِيكَ وَرَاثَةُ TM ~ وَمَجْدُكَ لَا يَنْسَى الذِّمَامَ كَرِيمَهُ

وكذلك قوله :

دَعَاكَ بِأَقْصَى الْمَغْرِبِينَ غَرِيبُ TM ~ وَأَنْتَ عَلَى بُعْدِ الْمَزَارِ قَرِيبُ⁽⁷⁹⁾

كما برع في المدائح السلطانية ، وترك منها طائفة كبيرة من أبدع ما أنشد ، كقصيدته في مدح السلطان الغني بالله إثر عودته من المنفى إلى غرناطة ومطلعها :

الْحَقَّ يَعْلُوُ وَالْأَبَاطِيلُ تَسْفَلُ TM ~ وَاللَّهُ عَنْ أَحْكَامِهِ لَا يُسْئَلُ.

(77) الفحام ، مجلة الثقافة ، ص7.

(78) المقري ، نفع الطيب ، ج6/ ص425.

(79) المقري ، نفع الطيب ، ص361.

ويقال إن السلطان أمر بكتابة هذه القصيدة على قصور ه بالحمراء ، لشدة إعجابه بها، وأنها إلى الآن لم تزل مكتوبة على تلك القصور.⁽⁸⁰⁾

كما كانت له العديد من القصائد – التي يصعب حصرها – قالها في الملوك والسلاطين، كذلك قصائد الرثاء ، كرثاء لزوجته ورثاءه لنفسه.⁽⁸¹⁾

وقد جمع ابن الخطيب قصائده في ديوان شِعْر سماه ((الصيْبُ) السحاب الماطر) والجهام (السحاب الذي لا مطر له) وَالْمَاضِي (النافذ) و الْكُهَّام (الكليل البطئ)⁽⁸²⁾ ، وهو ديوان كبير يقع في سفيرين (جزءين) ، كما أورد لنا ابن الخطيب الكثير من قصائده في مختلف مؤلفاته ، السابقة الذكر ، ومن نتاجه الشعري ، أنه جمع تراجم شعراء عصره في مجموعة من المؤلفات مثل :

كتابه الشهير (الكتيبة الكامنة فيمن لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة) ، وهو عبارة عن مجلد واحد ترجم فيه ابن الخطيب لمائة شاعر وثلاثة ، الذين لقيهم لسان الدين خلال حياته.

وقد ألف ابن الخطيب هذا الكتاب سنة (774 هـ / 1372 م) ، أي بعد تركه الوزارة والإقامة في المغرب ، بعد أن انزاح عنه عبء الرئاسة وتبعاتها ، يقول في مقدمة الكتاب : ((.... فجمعت في هذا الكتاب جملة وافرة ، وكتيبة ظافرة ، ممن لقيناه في بلدنا الذي طوينا جديد العمر في ظله ، وطاردنا فنائص الآمال في حرمه وحله ، ما بين من تلقينا إفادته ، أو أكرمنا وفادته ، وبين من علمناه وخرجناه ، ،

(80) عبدالجواد رمضان ، بين لسان الدين وابن خلدون ، مجلة الأزهر ، مج : 12 ، (القاهرة ، مطبعة الأزهر ، 1360 هـ / 1940 م) ، ج 1 / 290.

(81) ينظر : ملحق رقم (5) .

(82) قد حققه محمد الشريف قاهر ، الجزائر ، الشركة الوطنية للنشر ، سنة (1393 هـ / 1973 م) .

والمقصود إنما هو الإمام بتعريف ، و جلب أدب ظريف ، وخبر طريف ، وسميت هذا
الوضع بالكتيبة الكامنة فيمن لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة))⁽⁸³⁾.

لقد عمد ابن الخطيب إلى الإطراف ، والتعريف بمعاصريه من الشعراء
والأدباء الأندلسيين ، دون غيرهم ، فقد كان الغرض من تأليفه ، أن يقدم هذا الكتاب
هدية للمشاركة ، عند قيامه برحلة إلى الحج ، غير أن هذه الرحلة لم يكتب له القيام
بها، ((وإن كان جالب هذا الكتاب إلى البلاد المشرقية أعز الله أهلها ، وأمن حزنها ،
وسهلها ، جالب نغمة (أي جرعة الماء) إلى غرير.....))⁽⁸⁴⁾.

وقد قسم ابن الخطيب كتابه هذا إلى أربع طبقات وقد اختار تقسيماً منهجياً
مهنيًا ، جعله على النحو الآتي :

- 1- طبقة الخطباء الفصحاء والصوفية العلماء .
- 2- طبقة المقرئين والمدرسين.
- 3- طبقة القضاة.
- 4- طبقة من خدم أبواب الأمراء من الكتاب والشعراء.

وهكذا قسم كتابه ، مقداً لكل طبقة بحكم نقدي عام ، ويلاحظ في بعض
ترجمته لبعض الشخصيات ، تبدل وتحول في تقدير ابن الخطيب لبعض الرجال الذين
كان لهم شأن في حياتهم السياسية ورفعتهم ثم انقلبوا إلى أعداء كائدين ،⁽⁸⁵⁾ أدوا بولي
نعمتهم إلى التهلكة ، وسعوا في حتفه وكان ما كتبه عنهم قبل وصد ولهم إليه هو كل ما
استطاع فعله تجاههم.

(83) ابن الخطيب ، الكتيبة الكامنة ، ص 17.

(84) ابن الخطيب ، الكتيبة الكامنة ، ص 17.

(85) المصدر السابق، ص 305.

فحين يتكلم عن أعدائه ينال منهم بشدة و يقبحهم ، ويعمد إلى السُّخرية منهم ، وعلى سبيل المثال ، سخريته من القاضي النباهي – الذي اتهم ابن الخطيب بالزندقة وسعى في قتله – ووصفه بالجعسوس⁽⁸⁶⁾ (أي الذميم).

وهذا الكتاب⁽⁸⁷⁾ ذا قيمة تاريخية وأدبية ؛ لأنه استطاع أن يعطي صورة واضحة المعالم عن الشعر الأندلسي في القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي، فقد قدم نصوصاً تمثل فن أولئك الشعراء ، فهو يفيد المؤرخ ، والأديب ، والناقد.

وتوجد من هذا الكتاب نسخة خطية بالمكتبة الكتانية بالرباط تحمل رقم (2291).

ونسختان بالخرزانة العامة بالرباط تحملان رقم (569 / 132)⁽⁸⁸⁾.

كذلك من أشهر مؤلفاته في الشعر كتاب (السحر والشعر)⁽⁸⁹⁾ وهو ليس من تأليفه ، ولكنه من إعداده وتصنيفه ، وهو عبارة عن مختارات شعرية ، قام بجمعها لبعض شعراء المشاركة وشعراء المغرب والأندلس .

وقد جمع هذا الكتاب وأعدده في فترة إقامته بمهجره (سلا)⁽⁹⁰⁾ ، والسبب وراء ظهور هذا الكتاب ، هو أن ولده عبدالله قد كُبر وبلغ مبلغ الشباب ، فأهداه هذا الكتاب قصد تأديبه وتهذيبه ، وتزويده بما اختار له من الأشعار والمقاطع والأبيات من مختلف شعراء المشرق ، والمغرب ، والأندلس ليستزيد منه علماً وثقافة.⁽⁹¹⁾

(86) المصدر السابق ، ص 146.

(87) قام بتحقيق هذا الكتاب إحسان عباس ، (بيروت ، دار الثقافة ، 1383 هـ / 1963 م) .

(88) هذه الأرقام بناءً على ما جاء به إحسان عباس في مقدمة كتاب الكينة الكاملة ، ص 22 .

(89) قام بتحقيق هذا الكتاب محمد مفتاح الصغير ، الدار البيضاء 1410 هـ / 1989 م .

(90) ابن الخطيب ، نفاضة الجراب ، ص 189 .

(91) الشكعة ، المغرب والأندلس ، ص 336 .

كذلك من كتبه لتراجم الشعراء ، كتاب (التاج المُحلى في مساجلة القدح

المُعلّى) و (عائد الصلّة) ، وهو مفقود ، و (الدرر الفاخرة واللجج الزاخرة) .⁽⁹²⁾

يمكن القول ، أن ابن الخطيب بمؤلفاته هذه استطاع أن يرسم صورة كاملة

عن الأدب الأندلسي ، في المائة الثامنة من الهجرة / الرابع عشر الميلادي .

فقد طرق في شعره الأغراض الشعرية ، في كثير من القصائد في التوسل

والشكوى إلى الله تعالى ورسوله (صلى الله عليه وسلم وآله وصحبه) ، في المديح

والرثاء ، وكذلك في الغزل والوصف ، والصبغة الغالبة على شعره ، كانت صبغة

العلماء والفقهاء الذين يميلون إلى الصراحة في ذكر الحقائق .⁽⁹³⁾

وكما أبدع ابن الخطيب في نظم القصائد الشعرية ، أبدع أيضاً في فن

الموشحات والزجل .

وهو نوع من الشعر العربي ، استحدثه الأندلسيون ، وأسموه الموشحات ،

وهو يرجع في الأصل إلى الأغنية الشعبية وينظم أسماً وأغصاناً ، والموشحة

تختلف في تركيبها عن القصيدة ، إذ تتعدد القوافي في الموشحة ، وتسمى الأبيات

التي تختلف قوافيها بالأغصان والتي تتفق قوافيها بالأسماط .⁽⁹⁴⁾

يقول ابن خلدون عن هذا الفن : ((أما أهل الأندلس فلما كثر الشعر في

قطرهم ، وتهذبت مناحيه وفنونه ، وبلغ التتميق فيه الغاية ، استحدث المتأخرون منهم

فنّاً منه سمّوه بالموشح ، ينظمونه أسماً وأغصاناً ، يكثر منها ومن أعاريضها

المختلفة ، ويسمون المتعدد منها بيتاً واحداً))⁽⁹⁵⁾ .

(92) المقري، نفع الطيب، ج 7 / ص98.

(93) خفاجة، قصة الأدب العربي في الأندلس، ج 1 / ص328.

(94) السيد سالم، تاريخ وحضارة الإسلام، ص300.

(95) ابن خلدون، المقدمة، (بيروت، دار الكتاب، بيروت 1379 هـ / 1959 م)، ص1447.

وقد عرفه ابن سناء الملك (ت 608هـ/1211م) في كتابه ((دار الطراز)) ((بأنه ،
أي الموشح، كلام منظوم على وزن مخصوص وهو يتألف في الأكثر من ستة أفعال
وخمسة أبيات ويقال له التام ، وا لأقل من خمسة أفعال وخمسة أبيات ي قال له
الأقرع))⁽⁹⁶⁾.

مثال على ذلك :

القفل المركب من جزئين مثل :

شمس قارنت بدرأ كآسي ونديم

والقفل المركب من ثلاثة أجزاء مثل :

حلت يد الأمطار أزرة النوار فيخدني

والمركب من أربعة أجزاء مثل :

1- أدرلنا أكواب 2- يُنسى بها الجد

3- واستحضر الجلاس 4- كما اقتضى الود

والمركب من خمسة أجزاء مثل :

1- يا من أجودُ ويبخل 2- على شخص وافتقاري

3- أهواك 4- وعندي زيادة 5- منها شوقي وأدكاري⁽⁹⁷⁾

.... وهكذا.

أما بطرس البستاني فقد قال عنه :

(96) أبو القاسم هبة الله ابن سناء الملك ، دار الطراز في عمل الموشحات ، حققه : جودة الركابي ،

(دمشق ، دار الفكر ، 1368هـ ، / 1949م) ، ص 25.

(97) صلاح الدين خليل بن أبيك الصفدي (ت 696 هـ / 1296 م) ، توشيح التوشيح ، حققه : البير حبيب

مطلق ، (بيروت ، دار الثقافة ، 1386 هـ / 1966 م) ص 23.

((إنه فن جديد ، من شعر المتقدمين استنبطه أهل الأندلس وسموه موشحاً لما فيه من الصنعة والتزيين ، فكأنهم نظروا إلى وشاح المرأة وما فيه من ترصيع وتزيين اللؤلؤ ، فشبهوه به في أسماطه وأبياته وأقواله))⁽⁹⁸⁾

أما مبتكر الموشحات فهو (مقدّم بن معافري القبري الضرير (ت 299 هـ/ 911م) ، هو من شعراء الأمير عبدالله بن محمد المرواني (275 – 300 هـ/ 888-912م). في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي ، ثم أخذ عنه ابن عبدربه (ت 329 هـ/ 940م) ، صاحب العقد الفريد ، وتلاه عدد من الوشاحين .⁽⁹⁹⁾

فالموشحات كما يقول بعضهم هي حاصل نزاع حدث بين نفسية الشعب الأندلسي ، الميل بفطرته إلى الطرب والغناء ، والأدب العربي المهاجر ، الذي أضاف إليه لحنه الطربي ، إذا فهذا الفن يتصل اتصالاً وثيقاً بفن الموسيقى والغناء.⁽¹⁰⁰⁾ وقد عالجت الموشحات الموضوعات التي عالجها الشعر الفصيح ، فتناولت الغزل ، ووصف الطبيعة ، والمراثي ، ومدح الملوك والأمراء ، والتنهاني عند المناسبات ، كذلك مدح النبي " صلى الله عليه وسلم وآله وصحبه " ، كما هناك موشحات المتصوّفة ، وهي تحمل الكثير من مصطلحات الصوفية ، ورموزهم وإشاراتهم .⁽¹⁰¹⁾

ولابن الخطيب أيضاً في هذا الجانب منزلة ومكانة ومقاماً معروفاً ، وقد أنشد الكثير من الموشحات منها :

رُبَّ لَيْلٍ ظَفَرْتُ بِالْبَدْرِ وَنَجْمُ السَّمَاءِ لَمْ تَدِرْ

(98) بطرس البستاني ، أدباء العرب في الأندلس ، بيروت ، دار المكشوف د . ت) ، ص 158 .

(99) رثيف خوري ، التعريف في الأدب العربي ، (بيروت ، لجنة التأليف المدرسي د . ت) ج 1 / ص 349 .

(100) أحمد الطاهر مكي ، الموشحات فن أصيل ، مجلة الأصالة ، العدد 11 ، (الجزائر ، وزارة التعليم والشؤون الدينية ، قسنطينة ، 1392 هـ / 1972م) ، ص 110 ، 113 .

(101) مصطفى عوض الكريم ، الموشحة ، (القاهرة ، دار المعارف 1385 هـ / 1965م) ، ص 18 ، كذلك ينظر : عتيق ، الأدب العربي في الأندلس ، ص 363 .

حفظ الله ليلنا ورعى

أيّ شملٍ من الهوى جمعا

غفل الدهرُ والرقيبُ معاً

ليت نهر النَّهار لم يجبر

فكَمَ الله لي على الفجر

ومن بديع موشحاته :

كم ليوم الفراق من عُصَّة

ففي فوائد العميدُ

نرفعُ الأمر فيه والقصة

للـوليِّ الحميد⁽¹⁰²⁾

أما أشهر موشحة له ، فهي موشحته المعروفة التي عارض بها موشحة الشاعر إبراهيم الاشبيلي بن سهل (649 هـ / 1251 م) مطلعها :

هلْ درى ظبى الحمى أن قد حمى

قلب صبٍ ، حلّه عن مكّس⁽¹⁰³⁾

فقد تغنى بها المغنون ، واشتهرت بين الناس ، فتصدى لها ابن الخطيب ، وعارضها بموشحته الشهيرة :

جادك الغيثُ إذا الغيثُ همى

يا زمانَ الوصلِ بالأندلس

لم يكن وصالك إلا حلماً

في الكرى أو خلسة المختلس

إذ يقود الدهر أشتات المنى

يئنُّ الخطو على ما يرْسُمُ

ثم يقول :

حيث يَبَيْتُ النصر محمى الحمى

وجنى الفضل زكى المغرس

والهوى ظل ظليلُ خيما

والندى هبَّ إلى المغترس⁽¹⁰⁴⁾

(102) أورد المقرئ أغلب قصائد ابن الخطيب وموشحاته في الجزء السادس والسابع في كتابه نفح الطيب .

(103) المقرئ ، نفح الطيب ، ج 7 / ص 61 .

(104) المقرئ ، نفح الطيب ، ص 11 ، 14 .

يلاحظ من خلال هذه الموشحة ، وغيرها من موشحات ابن الخطيب ، أنها غزلية في البداية ، في ترجم فيها زمان الوصل بمن كان يحبهم ويهواهم ، في وطنه الأندلس ، الذي يصارع شبح السقوط ، ثم ينتقل إلى مجال آخر وهو المديح ، حيث يُثنى على بني نصر ، وسلطانة (محمد الغني بالله) وقد بلغ اهتمامه بالموشحات أنه جمع موشحات سابقه من أعلام هذا الفن في كتاب سماه (جيش التوشيح) ، وضعه في سفرين ، ويذكر الأستاذ هلال ناجي محقق هذا الكتاب أنه لم يصلنا منهما إلا سفر واحد ، وهو خاص بوشاحي القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي ، أما السفر الثاني فهو يضم وشاحي القرن السابع ، و لنصف الأول من القرن الثامن الهجريين/ الثالث عشر – الرابع عشر الميلادي.⁽¹⁰⁵⁾

إن هذا الكتاب يؤكد تفتح وجدان ابن الخطيب الأدبي ، واتساع ملكاته لقبول مظاهر الحداثة والجديد في الإبداع والفن آنذاك ، على عكس من رفضوا جلب الموشحات إلى آثارهم.

ولهذا الكتاب يوجد مخطوط منه في مكتبة حسن حسني عبدالوهاب (عميد المؤرخين التونسيين) كذلك مخطوطة في جامعة الزيتونة بتونس ، تحمل رقم (4583)⁽¹⁰⁶⁾.

وكما اهتم ابن الخطيب بالموشحات اهتم كذلك بفن الزجل ويقال إن أول من ابتدعها سعيد بن عبدربه (ت 341 هـ / 952 م) ، وهو ابن أخ عبدربه صاحب العقد الفريد ، والزجل فن شبيه بالموشحات .

(105) ابن الخطيب جيش التوشيح ، (تونس ، مطبعة المنار 1387هـ / 1967م) ، المقدمة (ص أ ، ب) .

(106) هذه المعلومات بناءً على ما ذكره هلال ناجي في مقدمة كتاب جيش التوشيح (ص م ، ن) .

فلما شاع فن التوشيح في أهل الأندلس ، وأخذ به الناس لسلاسته وسهولة
كلامه ، فنسجت العامة من أهل الأمصار على منواله ، قصائد بلهجتهم العامية مع
مزجها باللهجة الإسبانية الدارجة (107) ، فظهر الزجل ، وهو أكثر ارتباطاً بالتراث
الشعبي ، وكان يحمل في معانيه أخلاق وقيم اجتماعية ، وبالتالي كان يعتبر وثيقة
تعبر عن أهل الأندلس وأحوالهم. (108)

لقد اهتم ابن الخطيب بهذا النوع من الفن ، وقد عرف الزجل الأندلسي بقوله :
((إن النظم بهذه الطريقة الهزلية على لسان عوام الأندلس الملقب بالزجل ، هي
طريقة بدیعة يتحكم فيها إلغاء البديع ، وتنفسح لكثير مما يضيق سلوكه على
الشاعر)) (109) ، وهنا يقصد أن هذه الطريقة ، سهلة ، وبإمكان العامة من الناس النظم
فيها.

على الرغم من تطرق ابن الخطيب لهذا الفن فقد كان نتاجه يسيراً فيه ، فمما
قال في هذا :

بين طلوع وبين نزول اختلطت بالعزول** ومضى من لم يكن وبقي من لم يزل

أنا ليس نشكر خليع أن ثمل وإن صحا

حتى يقطع في القطيع ويدور بحال رحا (110)

وقال : أيضاً و هي ذات طابع صوفي :

(107) عبدالرحمن بدوي ، دور العرب في تكوين الفكر الأوربي ، ط2 ، (القاهرة ، مكتبة الأنجلو المصرية
1387 هـ / 1967 م) ، ص 12 .

(108) عبدالعزيز الأهواني ، حركات التجديد في الأدب العربي ، (القاهرة ، دار الثقافة 1395 هـ / 1975 م) ،
ص82.

(109) ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج2/ص202.

(110) المقري ، نفح الطيب ، ج 1 / ص 244.

أنتَ في حسنك فرد كل حسن منك يبرُ

انت بدر انت شمس انت آس انت ورد

أنت معنى العشق لولاك سلا بشرُ وهد (111)

وبهذا فقد ظهرت براعة ابن الخطيب في قرض شتى أنواع الشعر من قصائد عمودية وموشحات وأ زجال ، وتجلى علمه الواسع بالأدب العربي ، وبذلك فهو من أبرز شعراء العصر الغرناطي ، وهذا ما يؤكد وصف ابن خلدون له بقوله : ((شاعر الأندلس والمغرب في عصره ، وكان له في اللسان ملكة لا تدرك)) ، كما قال عنه : ((إمام النظم والنثر في الملة الإسلامية غير مدافع ...)) (112).

(111) ابن الخطيب ، نفاضة الجراب ، ص207.

(112) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ، 409 ، 522.

رابعاً : عنايته بالطب والتأليف فيه :

وكما اهتم ابن الخطيب بالتاريخ والجغرافيا ، والشعر والأدب ، اهتم أيضاً بالطب وأولاه عناية فائقة وألف فيه العديد من الرسائل .

وقد أخبر ابن الخطيب في ترجمته لنفسه في الإحاطة ، أنه أخذ الطب عن شيخه الإمام (أبي زكريا بن هُدَيْل - كما ذكر سابقاً ، صفحة 38 - وأنه لا زمه إلى آخر حياته ، وقد قال عنه ابن الخطيب : إنه كان آخر حملة الفنون العقلية بالأندلس ، وقد توفي ابن هُدَيْل سنة (753 هـ / 1352 م) وتولى ابن الخطيب د فنه ، فقد كان يجله ويحبه كثيراً ، ولم يذكر ابن الخطيب شيخاً آخر من شيوخه في الطب غير ابن هُدَيْل. (113)

لم يتفرغ ابن الخطيب لممارسة الطب تفرغاً تاماً ، بل كان مشغولاً بأمور الدولة وأعبائها ، إلا أنه يمكن أن نؤكد بان عنايته بالطب والتأليف فيه كانت كبيرة ، بل كانت أحياناً جزءاً من أعماله الرسمية ، والمثال على ذلك ، أنه ألف كتابه (عمل مَنْ طَبَّ لِمَنْ حَبَّ) لسلطان المغرب أبي سالم المريني ، كما أهدى كتابه ((الوصول لحفظ الصحة في الفصول)) للسلطان أبي عبدالله محمد الغنى بالله النصري. (114)

ويمكن القول أن ابن الخطيب ، كان طبيب البلاط النصري ، إلى جانب ما يقوم به من أعباء الوزارة ، بل كان في وقت ما يعتني بمعالجة المرضى ، كعنايته بشيخه ابن هُدَيْل عندما أصيب بالفالج (الشلل) (115).

(113) المقرئ ، نفح الطيب ، ج 3 / ص 487.

(114) الخطابي ، الطب والأطباء ، ج 1 / ص 192.

(115) المقرئ ، نفح الطيب ، ج 5 / ص 497.

فضلاً عن مساهمته في تدريس علم الطب لبعض الطلاب مثل : أحمد بن محمد بن المهنا الذي خلف كتاباً ضخماً في شرح أرجوزة ابن سينا في الطب ، وشرحه عليها من أبداع الشروح ، وقد نقل عن لسان الدين كثيراً ، واعتمد عليه في أمور الطب (116).

ويمكن في هذا المجال ذكر مؤلفات ابن الخطيب في الطب ، كما أوردها المقري في كتابه نفح الطيب ، وهي :

- رسالة في الطب سماها ، مقنعة السائل عن المرض الهائل ، وهي رسالة كتبها عن الطاعون الجارف الذي داهم الأندلس و سائر بلاد العالم سنة (748هـ / 1347م) .

وتمتاز هذه الرسالة بالجرأة ، وشرح الحجج المقنعة لانتقال العدوى بهذا المرض خلاف ما كان سائداً من أفكار غير صحيحة .

وقد شخص ابن الخطيب هذا المرض ووصف كيفية الوقاية منه قبل الإصابة به ، وما ينبغي عمله من إسعافات وعلاج بعد الإصابة (117) .

كما عالج في هذه الرسالة بعض المسائل الطبية كالإجهاض مثلاً .

كما قدم فيها ترجمة لصديقه ابن خاتمة الطبيب والشاعر (ت 770 هـ/1368م) ، الذي كانت رسالته ، سنة (750 هـ/ 1349 م) في الطاعون ، أكبر شأناً من رسالة ابن الخطيب .

ولابن الخطيب :

- 1- المسائل الطبية .
- 2- أرجوزة في الطب .
- 3- الرجز في عمل الترياق .

(116) المقري ، نفح الطيب ، ج 7 / 281 - 282 .

(117) روم لاندو ، الإسلام والعرب ، تعريب : منير البعلبكي ، (بيروت ، دار العلم للملايين 1382 هـ /

1962م) ، ص 268 .

4- اليوسفي في عمل الطب .

5- رسالة في تكوين الجنين .

6- رجز في التغذية .

7- كتاب في علاج السموم .

8- كتاب في البيطرة (118) .

ومن كتبه التي سأحدث عنها هو :

- كتاب الوصول لحفظ الصحة في الفصول :

وهو من أهم ما ألف في ا لطب ، واسمه يدل على معناه ، من حيث إنه يهتم بتدبير الصحة بما يناسب كل فصل من فصول السنة الأربعة ، وقد فرغ ابن الخطيب من تأليفه ، في الثاني عشر من جمادى سنة (770 هـ / 1368 م) ، أي قبل وفاته بخمس سنوات ، وأهداه لسلطانه (محمد الغني بالله النصري).

وضم في هذا الكتاب خلاصة ما وصل إليه من معارف و تجارب في حفظ الصحة، والأغذية ، والوقاية من الأمراض .

ويشمل هذا الكتاب على جزئين ، جزء يعالج الجانب النظري العام ، والجزء الثاني في الوقاية وحفظ الصحة .

و يتحدث في الجزء الأول عن طبيعة فصول السنة وتأثيرها في الأبدان ، كما يتكلم عن التغييرات التي تصاحب الفصول .

كما يشير إلى العناصر التي يتרכب منها بدن الإنسان ، وعن العناصر
الضرورية للإنسان ، كالهواء والمأكول والمشروب .

كما يتحدث عن أحوال النوم واليقظة ، منافعهما ومضارهما (على الرغم من
معرفة بهذا العلم إلا أنه لم يستطع معالجة مرضه بالأرق الذي أصابه !!؟) .

والجزء الثاني : يشتمل على اختلاف الأمزجة ، وعلاماتها ، ويتكلم في تدبير
بدن الإنسان بحسب الفصول الأربعة كذلك يتحدث عن أمور الأطفال والشيوخ (119) .

ويوجد مخطوط هذه الرسالة في الخزانة العامة بالرباط تحمل رقم (652) ،
وأخرى في الخزانة الملكية تحمل رقم (797) (120)

ومن كتبه في هذا المجال :

- كتاب عمل من طب لمن حب :

ألف لسان الدين هذا الكتاب لسلطان المغرب أبي سالم بن أبي الحسن المريني،
وقد انتهى من تأليفه سنة (761هـ / 1359م) (121) .

ويتألف هذا الكتاب في جزءين الأول : يتألف من عشرين باباً تحدث فيه عن
الأمراض التي تصيب الإنسان من الرأس إلى القدم ، كالصداع ، وأمراض العين ،
والأذن ، والأنف ، وأمراض الحلق ، والصدر الخ .

أما الجزء الثاني فهو من أربعة عشر باباً تحدث فيها عن الأمراض التي تعم
البدن كله ولا تختص بعرض معين ، كالحمى ، والأورام ، وأمراض الجلد
وغيرها .

(119) الخطابي ، الطب والأطباء ، ص 191 ،

(120) دويدري ، لسان الدين ، ص 117 .

(121) ابن الخطيب ، ربحانة الكتاب ، ص 37 .

وتوجد نسخة خطية من هذا الكتاب في الخزانة الحسينية بالقصر الملكي
بالرباط تحمل رقم (3477) ، ونسخة أخرى بخزانة القرويين في فاس تحمل رقم
(607/40)، وأخرى في المكتبة الوطنية بمدريد تحمل رقم (3011)⁽¹²²⁾.

من خلال الإطلاع على منهج ابن الخطيب في هذه الكتب ، يلاحظ إنه أتى
على ذكر كل مرض مشيراً إلى تعريفه ثم أسبابه وعلاماته ، و بعد ذلك يتطرق إلى
علاج ذلك المرض وتدبيره .

وتعتبر كتب ابن الخطيب في الطب مهمة ، على الرغم من أنه لم يأت بجديد
في مجال عالم الطب عما معروفاً في ذلك الوقت ، إلا أنه يمكن القول بأنه ، قد أتى
بأسلوب جديد في تأليف كتبه.

كما استطاع من خلال كتبه ، خاصة كتاب (عمل من طب) ، أن يأتي
بالأمراض التي كانت معروفة في زمانه والإفاضة في شرح علاجها من خلال
الأدوية الشائعة وغير الشائعة لكل مرض⁽¹²³⁾.

(122) الخطابي ، الطب والأطباء ، ص 193 ، كذلك ينظر : ابن الخطيب ، روضة التعريف ، المقدمة (ص28).

(123) المصدر السابق ، ص 196 ، 200 .

خامساً : علاقته بالتصوّف :-

كان ابن الخطيب متديناً ورعاً فقيهاً متمكناً من علوم الشريعة ، والحديث ، حافظاً للقرآن ومنتقناً لعلومه ، وبالتالي ومما لاشكّ فيه أنه ارتبط بالتصوف ، أو كانت له اتجاهات صوفية ، وأنه قد ازداد تعاطف الروح الدينية في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي ، في الأندلس والمغرب وذلك لأسباب كثيرة أهمها :

الحروب التي تهدد غرناطة من الممالك المسيحية المجاورة ، وضعف العرب المسلمين في مواجهتها ، كذلك كثرة الطواعين والأوبئة والمجاعات التي تلاحقت على البلاد ، فلم يجد أهلها سوى العود إلى الله تعالى لينجيهم ، وكان هذا العود عن طريق التصوف الذي يرى أن الرسول "صلى الله عليه وسلم وآله وصحبه " هو المثل الأعلى ، والإنسان الكامل ، وأفضل الخلق ، والوساطة بينه وبين الحق ، وهو سبب الهداية والمنجى لما هم فيه ، ودفع ذلك شعراء هذا العصر لينظموا القصائد في مدحه وتعظيمه وحبه ، والشوق لزيارته والاستغاثة به (124) .

وما كان من ابن الخطيب إلا أن يدخل في غمار هذه الحالة ، وكثرة المدائح النبوية التي اشتهر بها ، خير دليل على نزعه الصوفية :

وبالمُصْطَفَى والصحب عَجَلُ إِقَالَتِي ~ TM وأنجع دُعائي فيك يَا خَيْرَ مَنْ يُدْعَى

صَدَعْتُ وَأَنْتِ الْمَسْتَغَاثُ حَنَانُهُ ~ TM أَقْلُ عَثْرَتِي يَا مَوْلِي واجبر الصَّدْعَا (125)

وقد كان المديح النبوي الشريف ، والتضرع إلى الله تعالى ، أحد أهم أغراض شعر لسان الدين ، ليعبر عن صوفيته وزهده للدنيا ، والشوق لزيارة الأراضي المقدسة

(124) ابن الخطيب ، روضة التعريف بالحب الشريف ، ص 13 .

(125) ابن الخطيب ، نفاضة الجراب ، ص 127 .

كما أن رسائله المتوالية لأصدقائه وخاصة ابن خلدون وابن خاتمة ، تصور رغبته في الزهد والاعتدال ، وتركه السياسة والضجر منها وشوقه للقيام بالحج وزيارة الحبيب المصطفى ومن ذلك قوله لابن خاتمة :

((..... والنية مع الله على الزهد فيما بأيدي الناس معقودة ، والتوبة بفضل الله عز وجل منقودة ، والله قد عوض حب الدنيا بمحبته اني إلى الله مهاجر ، وللعرض الأدنى هاجر ...)) (126) .

فالصوفية حقيقة ملموسة في أدب وحياة ابن الخطيب ، وفي هذا المجال وضع العديد من القصائد ، كما ألف كتاب سماه (روضة التعرف بالحب الشريف) (127) ، وهو من أروع ما كتب ابن الخطيب في الحب الإلهي ، باعتباره هو الجانب الأصيل في التصوف ، وهو يعكس وجدان الصوفية واشراقاتهم الروحية .

كما أن هذا الكتاب جاء رداً على بعض الآراء والمذاهب الفكرية ، كأراء الفلاسفة الملحديين من أهل الإباحة ، وهو ما يدل على وجود صراع بين أهل العقائد والنزاعات المختلفة في ذلك العصر.

وتوجد مخطوطة هذا الكتاب بالخرزانة العامة بالرباط تحمل رقم (145) (128) .

ومن قصائده التي تعبر عن حبه وشوقه للرجوع إلى الله تعالى ورسوله " صلى الله عليه وسلم وآله وصحبه " :

(126) المقري ، نفح الطيب ، ج 6 / ص 32 .

(127) وهذا الكتاب نشره أحمد عطا ، سنة (1388 هـ / 1968 م) ، القاهرة ، مطبعة دار الفكر ، ثم نشره وحققه محمد الكتاني ، في مجلدين سنة (1390 هـ / 1970 م) ، الدار البيضاء ، مطبعة دار الثقافة .

(128) ابن الخطيب ، روضة التعرف بالحب الشريف ، ج 1 / ص 222 ، ص 61 .

لي الله كم أهذي بنجدٍ وحاجر TM ~ وأكني بدعدٍ في غرامي أسعدى

وما هي إلا زفرة هاجها الهوى TM ~ وأبدي بها تذكّار يثرب ما أبد

ثم قال :

ألا يا حداة الركب يبغون يثرباً TM ~ ويلقون في الله السامة والجهدا

بما بيننا من خلة طاب ذكرها TM ~ إذ فرغت عرج المطي بكم نجداً (129)

أيضاً له هذه الأبيات :

إذا قاتني ظل الحمى ونعيمه TM ~ كفاني وحسبي أن يهيب نسيمه

ويقتعني أني به متكيف TM ~ فزمرمه دمي وروحي حطيمه (130)

ومن خلال ما جاء في قصائده نفهم ان ابن الخطيب لم يتمكن من زيارته لتلك الأماكن المقدسة فيصف شوقه وحبه للقاء الله تعالى و الحبيب " صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه " عبر هذه الأبيات⁽¹³¹⁾ المليئة بالعاطفة المشبعة بالروح الصوفية .

و يبدو أن النكبات المتتالية على ابن الخطيب كانت بمثابة اليقظة من نوم الغرور بالحياة، وخلق في نفسه الرغبة نحو الزهد واعتزال الدنيا، واغتنام بقية العمر في التقرب إلى الله تعالى⁽¹³²⁾ .

(129) أغلب قصائده وأشعاره في نفع الطيب ، ج 6 ، ج 7 .

(130) ابن الخطيب ، نفاضة الجراب ، ص 123 .

(131) العربي سالم الشريف ، دراسات في الأدب الأندلسي ، (الزاوية ، ليبيا ، دار شموع الثقافة 1424 هـ /

2003م) ، ص 97 .

(132) ابن الخطيب ، روضة التعريف ، ص 51 .

والجدير بالذكر أن هذا الاتجاه الذي اتخذه ابن الخطيب ، كان أحد أسباب نكبته ، و ما جاء في كتابه (روضة التعريف) من الأسباب التي تذرع بها خصومه ، وعلى رأسهم القاضي النباهي ، الذي اتهمه بالزندقة والحلول ، وبالتالي ضرورة القبض عليه وقتله⁽¹³³⁾ .

وإذا رجعنا إلى هذا الكتاب نجده لا ينطوي على شيء مما جاء به خصومه من قول بالحلول والإلحاد ، بل تكلم ابن الخطيب على المذاهب والآراء المتصلة بهذا الموضوع ، ووقف عندها وقفات الرفض والإنكار الشديد لها ، وكشف عما فيها من ضلال كما يراه هو !⁽¹³⁴⁾ .

لقد كان ابن الخطيب بحسب ما خلف من آثار عديدة ، مؤرخ وجغرافي وأديب و شاعرٌ وطبيب ، وفقه صوفي ، وعالمٌ سياسي ، وأبرز تلك الجوانب بلا منازع هو ملكته الأدبية ، من إنشاء نثري وتفنن في النظم والترسل ، وهذا ما حمّله على تأليف تلك المصنفات التي برع فيها .

فقد كان واسع الثقافة متعدد الجوانب والاهتمامات الفكرية ، وبالتالي خلف وراءه تلك الأعداد الهائلة من المؤلفات المختلفة ، فقد ترك من مؤلفات التاريخ ما عدَّ به من المؤرخين ، وترك من مؤلفات الجغرافيا ما عدَّ به من الجغرافيين والبلدانيين والرحالة وترك من فنون النثر والرسائل والشعر ما جعله في عداد المترسلين ، وشاعر بالقدر الذي جعله من أعلام شعراء عصره .

(133) العبادي ، لسان الدين ابن الخطيب ، ص 358 .

(134) ابن الخطيب ، روضة التعريف ، ص 72 .

كما يبدو من هذا إن الثقافة الأندلسية قد تجلت واجتمعت في هذا الرجل العلم
وهذا ما جعل الأمفري أن يؤلف كتابه الذي سماه (نفح الطيب من غصن الأندلس
الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب).

الخاتمة

فهذه جوانب من حياة المؤرخ والوزير الغرناطي لسان الدين بن الخطيب ،
الذي انتقل إلى غرناطة مع أسرته واستقر بها منذ حدثته ، وتلقى بها دراسته وعلومه
فكان لها في قلبه منزلة رفيعة و تغنى بها في شعره ، كما تتلمذ على أيدي الكثير من
المشايخ والعلماء ما بين غرناطة والمغرب ، وأخذ منهم العديد من المعارف المتنوعة،
فقد عاش ابن الخطيب في بيت علم ومجد ورئاسة ، وكان لأسرته الغنية المثقفة
صلوات بالبيوت الشهيرة في غرناطة ، نشأ في بيئة مترفة ، وخلف والده عبد الله ،
الذي كان يشغل يومئذ مركزاً في القصر ، وخدم في ديوان الإنشاء ، وتأثر منذ صغره
بالأفق السلطاني الذي عاش فيه ، وبفضل مهارته وذكائه أستطاع أن يصل إلى مراتب
عليا في البلاط النصري في عصر (أبي الحجاج يوسف) ثم ابنه (محمد الخامس)
وأستأثر بثقة الأخير فأسبغ عليه لقب ذي الوزارتين ، لجمعه بين الوزارة والكتابة ،
وهكذا سطع نجم ابن الخطيب في مملكة غرناطة .

ودفع إليه الأمير ت دبير شؤون المملكة وفوضه ب القيام بجميع الأعمال نيابة
عنه ، فأصبح أكثر من وزير وسياسي وكاتب وشاعر ، فقد ترك في هذا المجال تراثاً
من الرسائل السلطانية التي كانت تحمل في أغلبها صيحة الجهاد لنصرة الأندلس،
والتماس العون من الدول الإسلامية المجاورة وعلى رأسهم المغرب .

واستمر ابن الخطيب ، محظوظاً برعاية سلطانه مخولاً باختصاصات
والصلاحيات.

ولكن شاء القدر أن يفقد الوزير ابن الخطيب حظوة مليكه ، وأن يشعر بتجهّم
الجو من حوله ، ونجاح خُصومه ، وهم ممن كان له الفضل عليهما فيما وصل إليه ،
وهما تلميذيه ابن زُمرَك والقاضي النباهي ، نجحا في السعاية ضده ، حينها قرر ابن

الخطيب الهروب والهجرة إلى المغرب ، وعاش هناك ، غير أن أعداءه ضاعفوا سعيهم لمطاردته وملاحقته ، وبالتالي قتله على النحو الذي رأيناه .

ومن خلال هذه الدراسة توصلت إلى عدة نتائج مهمة منها :-

- 1- أن مملكة غرناطة كانت تقوم في الفترة من التاريخ الاندلسي بأعباء الجهاد الشاق محققة النصر من حين لآخر ، وبلغت ذروة قوتها في فترة السلطان (أبو الوليد إسماعيل) وولده السلطان (أبي الحجاج يوسف) .
- 2- إن ما يميز غرناطة تنوع سكانها ، خاصة بعد أن هاجر إليها الكثير من الأسر المسلمة نتيجة سقوط القواعد الأندلسية الأخرى .
- 3- كان الطابع الغالب على المجتمع في غرناطة البهجة والسرور وكثرة الاحتفالات، على الرغم مما يهددهم من أخطار.
- 4- وكانت حياتهم الاقتصادية مزدهرة ، على الرغم من الحروب الدائمة مع الإسبان ، فقد ازدهرت الزراعة والصناعة وكذلك التجارة .
- 5- يتضح من خلال هذه الدراسة ، أن مملكة غرناطة ، كانت مركزاً لشتى أنواع العلم والمعارف ، ومبعثاً للحضارة بمختلف أنواعها ، كما برز منها العديد من العلماء والشعراء ، على رأسهم (لسان الدين بن الخطيب) .
- 6- توصلنا من خلال هذه الدراسة ، أنه رغم الأعباء السياسية التي كان يقوم بها، ابن الخطيب والمخاطر التي واجهته في حياته إلا أنه لم يكف قلمه عن الكتابة وتسطير الأحداث المختلفة التي مر بها ، حتى ترك لنا ما يناهز الستين مؤلفاً

في مختلف المعارف والعلوم لذا اجتمعت آراء المصنفين على كونه خلاصة للثقافة الإسلامية الزاخرة في الأندلس .

7- من خلال دراسة مؤلفاته توصلنا إلى أن التاريخ لدى ابن الخطيب هو تصوير للحياة الاجتماعية والاقتصادية والعمرانية لكل من غرناطة والمغرب ، فقد أعطانا مادة خصبة يرجع إليها الفضل الأول في كثير مما نعرفه عن حضارة الأندلس و المغرب الإسلامي في تلك الفترة .

8- من خلال رحلاته العديدة التي قام بها ابن الخطيب سواءً في مملكة غرناطة أو في المغرب ووصفه للمدن والمفاضلة بينها ، أعطت هذه الرسائل صورة عن الأدب الوصفي الذي صور المجتمع وعرض معالم حضارة عريقة مازالت حتى اليوم شاهداً على التقدم الحضاري في ذلك الوقت .

9- شارك ابن الخطيب في كتابة " فن التراجم " بإبداع نثري جميل ، ولكن للأسف إنَّ العديد منها لا يزال مفقوداً ، وتميز إبداعه في التراجم بمنهجية دقيقة، اتسمت بالاصالة، والأمانة والموضوعية .

10- توصلنا إلى أن ابن الخطيب ، كان بارعاً أيضاً في نظم الشعر العربي العمودي، كما أبدع في فن الموشحات وعد من أعلام شعراء العصر الغرناطي .

11- عدَّ ابن الخطيب، من الأطباء ، فقد كان طبيباً أيضاً، وألف في هذا المجال العديد من المؤلفات التي اهتمت بوصف الأمراض وكيفية علاجها ، مثل (عمل مخاطب لمن حب ، و (الوصول لحفظ الصحة في الفصول) .

12 - بسبب حسد الوشاة وكيد الحاقدين الذين تحاملوا عليه و هم ابن زمرك

والقاضي الذباهي تم تلفيق تهمة واهية ضده ، وبالتالي القبض عليه وقتله ظلماً
وزوراً .

أما التوصيات :

أن أغلب نتاج ابن الخطيب لم يصل إلينا ، فمنها ما هو مفقود في وقت إعداد
هذه الرسالة ، إما بسبب حرقه بعد نكبته ، أو بسبب إخفاء بعض الناس له ، ومنها ما
يزال مخطوطاً ، ندعو الباحثين والمحققين لإخراجه للنور .

كما أمل من الباحثين في الأدب والتاريخ ، القيام بقراءات معمقة أخرى حول
هذا الموضوع ، والكشف عن بعض الجوانب الغامضة التي ربما لم أستطع الكشف
عنها .

ثبت المصادر والمراجع

- القرآن الكريم (برواية ورش).

أولاً – المصادر :-

ابن الأحمر ، أبو الوليد إسماعيل بن يوسف ت 810 هـ / 1407 م .
2- نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان ، تحقيق : محمد رضوان الداية ، القاهرة ، دار الثقافة ، 1403 هـ / 1981 م .

الإدريسي ، أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس ت 560 هـ / 1164 م.
3- نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، القاهرة ، مكتبة الثقافة الدينية ، 1422 هـ / 2002 م .

الأنباري ، أبو البركات كمال الدين عبد الرحمن بن محمد ت 577 هـ / 1181 م .
4- نزهة الألباء في طبقات الأدباء ، تحقيق : القاهرة ، محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار النهضة ، (1389 هـ / 1969 م) .

ابن بطوطة ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي ت 779 هـ / 1377 م .
5- تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار – رحلة ابن بطوطة - المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة (1383 هـ / 1964 م) .

التبكتي ، أحمد بن أحمد بن أحمد بن عمر ت 1032 هـ / 1622 م .
6- نيل الابتهاج بتطريز الديباج ، تقديم : عبد الحميد الهرامة ، ليبيا ، كلية الدعوة الإسلامية ، 1410 هـ / 1989 م .

حاجي خليفة ، مصطفى بن عبد الله القسطنطيني ت 1075 هـ / 1656 م .
7- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، بيروت ، دار الفكر ، 1415 هـ / 1994 م .

ابن حجر العسقلاني ، شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد ت 852 هـ / 1448 م .
8- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، الهند ، دار المعارف العثمانية ، الهند ، 1350 هـ / 1931 م .

الحميري ، محمد بن عبد الله بن عبد المنعم السبتي ت حوالي 727 هـ / 1326م .
9- الروض المعطار في خبر الأقطار ، تحقيق : إحسان عباس ، بيروت ، دار صادر ، 1450هـ / 1984م .

ابن الخطيب ، لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبدالله الغرناطي السلماي
ت776هـ / 1374م .

10- الإحاطة في أخبار غرناطة ، تحقيق : محمد عبد الله عنان ، القاهرة ، دار المعارف ، 1375هـ / 1955م .

11- أعمال الأعلام فيمن بويغ قبل الاحتلام من ملوك الإسلام ، تحقيق : ليفي بروفنسال ، بيروت ، دار المكشوف ، 1376هـ / 1956م .

12- جي ش التوشيح ، تحقيق : هلال ناجي ، تونس ، مطبعة المنار ، 1387هـ / 1967م .

13- روضة التعريف بالحب الشريف، تعليق وتقديم : محمد الكتاني ، بيروت ، دار الثقافة ، 1391هـ / 1970م .

14- ربحانة الكتاب ونجعة المنتاب ، تحقيق : محمد عبد الله عنان ، القاهرة ، مكتبة الخانجي ، 1400هـ / 1980م .

16- كناسة الدكان بعد انتقال السكان ، تحقيق : محمد شبانة ، القاهرة ، القاهرة ، وزارة الثقافة ، دار الكتاب ، 1386هـ / 1966م .

17- الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة ، تحقيق : إحسان عباس ، بيروت ، دار الثقافة ، بيروت 1383هـ / 1963م .

18- اللحة البدرية في الدولة النصرية ، تحقيق : محمد زينهم ، القاهرة ، الدار الثقافية للنشر ، 1425هـ / 2004م .

19- مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في المغرب والأندلس ، تحقيق : أحمد مختار العبادي ، الإسكندرية ، مطبعة الجامعة ، 1378 هـ / 1958 م ، ومنشورات مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية 1404 هـ / 1983 م .

20- معيار الإختيار في ذكر المعاهد والديار ، تحقيق : محمد كمال شبانة ، القاهرة ، مكتبة الثقافة الدينية ، 1423 هـ / 2002 م .

21- نفاضة الجراب في علالة الإغتراب ، تحقيق : أحمد مختار العبادي ، القاهرة ، دار الكتاب العربي ، د.ت .

ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد ت 808 هـ / 1405 م .

22- التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً ، تحقيق : محمد الطنجي ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، د.م 1371 هـ / 1951 م .

23- العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب العجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، بيروت ، دار الكتاب اللبناني ، 1379 هـ / 1959 م .

24- المقدمة ، بيروت ، دار الكتاب ، ط2 ، 1379 هـ / 1959 م .

ابن خلكان ، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر ت 681 هـ / 1282 م

25- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق : محمد محي الدين عبدالحميد ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ط1 ، 1367 هـ / 1948 م .

ابن سناء الملك ، أبو القاسم هبه الله بن القاضي الرشيد ت 550 هـ / 1155 م .

26- دار الطراز في عمل الموشحات ، تحقيق : جودة الركابي ، دمشق ، دار الفكر ، 1368 هـ / 1949 م .

الصفدي ، صلاح الدين خليل بن أيبك ت 764 هـ / 1362 م .

27- توشيع التوشيح ، تحقيق : البير حبيب مطلق ، د.م ، دار الثقافة 1386 هـ / 1966 م .

الغرناطي ، محمد يوسف الصرحي (ت796هـ / 1393م) .
28- ديوان ابن زمرك ، قدمه : احمد سالم الحمصي ، بيروت ، المكتبة العصرية ،
1418هـ / 1998م .

القلقشندي ، أبو العباس أحمد بن علي ت 821هـ / 1418م .
29- صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، شرحه وعلق عليه : نبيل خالد الخطيب ،
بيروت ، دار الكتاب العلمية ، 1408هـ / 1987م .

ابن قنفذ ، أبو العباس أحمد بن حسن بن علي بن الخطيب ت 810هـ / 1407م.
30- الوفيات ، تحقيق : عادل نويهض ، بيروت ، منشورات المكتبة التجارية ،
1391هـ / 1971م .

المجاري ، أبو عبدالله محمد الأندلسي ت 862هـ / 1457م.
31- برنامج المجاري ، تحقيق : محمد أبو الأجدان ، بيروت ، دار الغرب الإسلامي ،
1403هـ / 1381م .

المقري ، شهاب الدين أحمد بن محمد ت 1041هـ / 1631م .
32- أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض ، تحقيق : مصطفى السقا وإبراهيم
الابباري ، القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والنشر ، 1359هـ / 1940م .

33- نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب ،
تحقيق : إحسان عباس ، بيروت ، دار صادر ، بيروت 1388هـ / 1968م .

الناصري ، أبو العباس أحمد بن خالد السلوي ت 1315هـ / 1897م .
34- الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، تحقيق : الدار البيضاء، جعفر
الناصري ومحمد الناصري ، دار الكتاب، 1374هـ / 1954م .

النباهي ، أبو الحسن علي بن عبد الله بن الحسن الجذامي المالقي (ت بعد 793 هـ / 1390م) .

35- تاريخ فضاء الأندلس المر قبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا ضبطته وشرحته : مريم الطويل ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، بيروت 1416هـ / 1995م .

الوادي آشي ، محمد بن جابر ت749هـ / 1348م .

36- برنامج الوادي آشي ، تحقيق : محمد محفوظ ، بيروت ، دار الغرب الإسلامي ، 1403 هـ / 1982م .

ياقوت ، شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي البغدادي ت 626 هـ / 1228 م .

37- معجم الأدباء - إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب - القاهرة ، دار المأمون ، 1355هـ / 1936م .

38- معجم البلدان ، بيروت، دار صادر ، 1376هـ / 1957.

ثانياً – المراجع العربية :-

الاسكندري ، أحمد ، ومصطفى عنان .

39- الوسيط في الأدب ، ط17 ، القاهرة ، دار المعارف ، دبت .

الاهواني ، عبد العزيز .

40- حركات التجديد في الأدب العربي ، القاهرة ، دار الثقافة ، 1395هـ / 1975م .

بدوي ، عبد الرحمن .

41- دور العرب في تكوين الفكر الأوروبي ، ط2 ، القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ، (1387هـ / 1967م) .

البستاني ، بطرس .

42- أدباء العرب في الأندلس ، بيروت ، دار المكشوف ، دبت .

الخطابي ، محمد العربي .

43- الطب والأطباء في الأندلس ، بيروت ، دار الغرب الإسلامي ، 1409هـ / 1988م .

خفاجة ، محمد عبد المنعم .

44- الأدب في الأندلس ، مكتبة المعارف ، بيروت 1382هـ / 1962م .

خوري ، رثيف .

45- التعريف في الأدب العربي ، لبنان ، لجنة التأليف المدرسي ، د . ت .

الداية ، محمد رضوان .

46- أبو البقاء الرندي ، دم ، مؤسسة الرسالة ، 1396هـ / 1976م .

الدقاق ، عمر .

47- مواكب الأدب العربي عبر العصور ، دمشق ، دار طلاس ، 1409هـ / 1988م .

الدوري ، تقي الدين عارف.

48- تاريخ المسلمين وحضارتهم في الأندلس ، ط1 ، الخمس ، جامعة ناصر ،
1418هـ / 1997م .

دياب ، مفتاح محمد .

49- تاريخ العلوم في الحضارة الإسلامية ، طرابلس، ليبيا ، الهيئة القومية للبحث
العلمي ، 1413هـ / 1992م .

الركابي ، جودت .

50- في الأدب الأندلسي ، القاهرة ، دار المعارف ، 1380هـ / 1960م .

الزاوي ، الطاهر أحمد .

51- مختار القاموس ، د . م الدار العربية للكتاب 1405 هـ / 1984م .

سالم ، السيد عبد العزيز .

52- في تاريخ وحضارة الاسلام في الأندلس ، الإسكندرية ، مؤسسة شباب الجامعة ،
1406هـ / 1985م .

شيبانه ، محمد كمال .

53- يوسف الأول بن الأحمر سلطان غرناطة ، القاهرة ، مطبعة الرسالة ،
1407هـ / 1986م .

الشريف ، العربي سالم .

54- دراسات في الأدب العربي الأندلسي ، الزاوية ، دار شموع الثقافة ،
(1424هـ / 2003م) .

بنشريفة ، محمد .

55- من أعلام أواسط العصر الغرناطي ، غرناطة ، بحوث الملتقى الإسباني
المغربي للعلوم التاريخية ، 1410هـ / 1989م .

56 - الشكعة ، مصطفى، المغرب والأندلس ، دار الكتب الإسلامية ، دار
الكتاب العربي، بيروت دار الكتاب اللبناني ، 1399هـ/ 1978م.

ضيف ، أحمد .

57- بلاغة العرب في الأندلس ، ط2 ، مصر، مطبعة الاعتماد ، 1404هـ/ 1983م .

ضيف ، شوقي .

58- الفن ومذاهبه في النثر العربي ، ط2، القاهرة ، دار المعارف ، 1356 هـ /
1938م .

الطبيبي ، أمين توفيق .

59- دراسات في التاريخ الإسلامي ، طرابلس ، ليبيا ، دار الأندلسية ،
1413هـ/ 1992م .

عاشور ، سعيد عبد الفتاح ، وسعد زغلول عبد الحميد ، وأحمد مختار العبادي .

60- دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ، الكويت ، مكتبة ذات السلاسل ،
1396هـ / 1976م .

العبادي ، أحمد مختار .

61- تاريخ المغرب والأندلس ، ط2 ، القاهرة ، دار المعرفة ، 1426هـ / 2005م .

62- عتيق ، عبدالعزيز ، الأدب العربي في الأندلس ، بيروت ، دار النهضة العربية ،
دب

العريس ، محمد

63- موسوعة شعراء العصر الأندلسي ، بيروت ، دار اليوسف ، 1426هـ/ 2005م .

عنان ، محمد عبد الله .

64- لسان الدين بن الخطيب حياته وتراثه الفكري ، القاهرة ، مكتبة الخانجي ، دب .

فرحات ، يوسف شكري .

65- غرناطة في ظل بني الأحمر ، بيروت ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ،
1403هـ / 1982م .

قجة ، محمد حسن .

66- محطات أندلسية ، جدة ، الدار السعودية ، 1406هـ / 1985م .

قفقية ، عبدة عبد العزيز .

67- خط سير الأدب العربي ، القاهرة ، دار الفكر العربي ، 1411هـ / 1990م .

كرد على ، محمد رضا .

68- الإسلام والحضارة العربية ، ط3 ، القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة ،
1388هـ / 1968م .

الكريم ، مصطفى عوض .

69- الموشحة ، القاهرة ، دار المعارف ، 1385هـ / 1965م .

المقدسي ، أنيس .

70- تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي ، بيروت ، دار العلم للملايين ،
1380هـ / 1960م .

مؤنس ، حسين .

71- تاريخ الجغرافيا والجغرافيون في الأندلس ، مدريد مطبعة معهد الدراسات
الإسلامية ، 1386هـ / 1967م .

النقراط ، على محمد .

72- ابن الجياب الغرناطي ، طرابلس ، ليبيا ، الدار الجماهيرية ، 1424هـ / 2003م .

ثالثاً – المراجع المعربة :-

بالنثيا ، أنخيل

73- تاريخ الفكر الأندلسي ، تعريب : حسين مؤنس ، القاهرة ، مكتبة النهضة
المصرية ، 1375هـ / 1955م .

لاندو ، روم .

74- الإسلام والعروبة ، تعريب: منير البعلبكي ، بيروت ، دار العلم للملايين ،
1382هـ / 1962م .

رابعاً – الرسائل والأطروحات الجامعية :

دويدري ، هناء .

75- لسان الدين بن الخطيب (حياته وأدبه وأثر المشرق فيه) ، أطروحة دكتوراه ،
جامعة دمشق ، كلية الأدب ، قسم اللغة العربية (1408هـ / 1987م) .

خامساً- الدوريات :

رمضان ، عبد الجواد .

76- بين لسان الدين وابن خلدون ، مجلة الأزهر ، المجلد الثاني عشر ، الجزء الثاني،
القاهرة ، مطبعة مصر ، 1360هـ / 1940م .

سالم ، عبد الحميد .

77- ابن خلدون ، مجلة عالم الفكر الاسلامي ، العدد الحادي عشر ، السنة الثامنة ،
بيروت ، دار الفتوى ، 1399هـ / 1979م .

الطوخي ، أحمد محمد .

78- غرناطة الإسلامية ، مجلة أوراق ، العدد الرابع ، مدريد ، المعهد الإسباني
العربي للثقافة، 1402هـ / 1981م .

العبادي ، أحمد مختار .

79- لسان الدين بن الخطيب ، مجلة عالم الفكر ، العدد الثاني ، الكويت ، وزارة
الأعلام ، الكويت 1406هـ / 1985م .

عنان ، محمد عبد الله .

80- بين ابن خلدون وابن الخطيب ، مجلة العربي ، العدد الخامس والثمانون ،
الكويت ، وزارة الإرشاد ، 1385هـ / 1965م .

81- 600 عام على وفاة وزير الأندلس ابن الخطيب ، مجلة العربي ، الكويت ، العدد
مائة وثلاثة وتسعون ، وزارة الإرشاد ، 1394هـ / 1974م .

عيسى ، محمد عبد الحميد .

82- تدخل الدولة في التعليم في الأندلس ، مجلة أراق ، العدد الثالث ، مدريد المعهد
الإسباني للثقافة ، 1410هـ / 1980م .

الفحام ، شاكراً .

83- لسان الدين بن الخطيب ، مجلة الثقافة ، العدد الثامن وسبعون ، دمشق 1411 هـ/
1990م .

القاسي ، ظافر .

84- عالم الأندلس البكر ، مجلة المجمع العلمي العربي ، المجلد الثامن والثلاثون ،
الجزء الثاني ، دمشق 1382هـ / 1963م .
القاضي ، وداد .

85- جوانب من الفكر السياسي لسان الدين بن الخطيب ، مجلة الفكر العربي ، العدد
الثالث والعشرون ، السنة الثالثة ، بيروت ، معهد الإنماء العربي ، 1402 هـ /
1981م .

قاهر ، محمد الشريف .

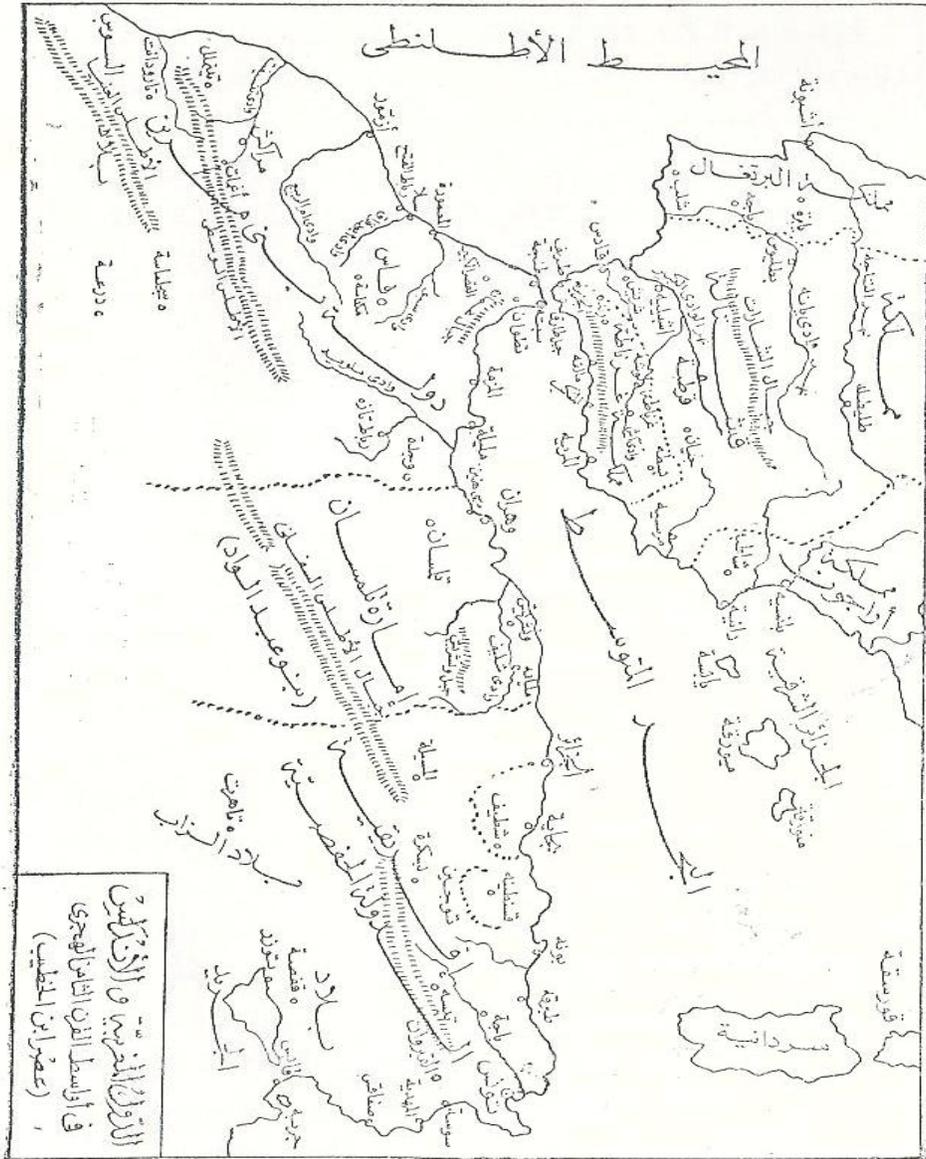
86- لسان الدين بن الخطيب وتراثه الفكري ، مجلة الآصال ، العدد السادس
والعشرون ، الجزائر ، وزارة التعليم والشؤون الدينية ، 1395هـ / 1975م .

مؤنس ، حسين .

87- غرناطة تحفة من تحف الفن وعجيب من عجائب التاريخ ، مجلة العربي ، العدد
التاسع والثمانون ، الكويت ، وزارة الإرشاد ، 1385 هـ / 1966م .

الملاحق

ملحق رقم (1) (1)



(1) عنان ، لسان الدين بن الخطيب ، ص 21.

ملحق رقم (2)

(أمراء دولة بني الأحمر)

- محمد بن الأحمر الأول : (629-672هـ/1232-1273م) .
- محمد الثاني الفقيه : (672-701هـ/1273-1302م)
- محمد الثالث المخلوع : (701-708هـ/1302-1309م).
- نصر بن محمد : (708-713هـ/1309-1314م).
- إسماعيل الأول (713-725هـ/1313-1325م) .
- محمد الرابع : (725-733هـ/1325-1333م)
- يوسف الأول (733-755هـ/1333-1354م) .
- محمد الخامس (الغني بالله - إمارته الأولى (755-760هـ/1354-1359م)
- إسماعيل الثاني : (760هـ/1359-1360م) .
- محمد الخامس - إمارته الثانية (762-794هـ/361-1392م) .
- يوسف الثاني : (793-795هـ/1392-1393م) .
- محمد السادس : (795-810هـ/1393-1408م) .
- يوسف الثالث : (810-820هـ/1408-1417م) .
- محمد السابع : (820-858هـ /1417-1454م) .
- سعد بن إسماعيل النصري : (858/868هـ/1454-1464م) .
- أبو الحسن علي : (868-887هـ/1464-1482م) .
- أبو عبد الله محمد : (887-888هـ/1482-1483م) .
- أبو الحسن علي - إمارته الثانية : (888-890هـ/1483-1485م) .
- أبو عبد الله الزغل (890-892هـ/1485-1487م) .
- أبو عبد الله محمد إمارته الثانية(782-897هـ/1487-1491) (1).

ملحق رقم (3):

(أمراء دولة بني مرين)

- أبو محمد عبد الحق بن خالد بن محيو (610-614هـ/1213-1217م).
- أسعد عثمان (614هـ-637هـ/1217-1239م).
- أبو معرف محمد بن عبد الحق (637-642هـ/1239-1244م).
- أبو بكر ابن عبد الحق أبي يحيى (642-656هـ/1239-1258م).
- أبو يوسف بن يعقوب بن عبد الحق (685-706هـ/1258-1306م).
- أبي ثابت عامر بن عبد الله بن يوسف (706-708هـ/1306-1308م).
- أبي الربيع سليمان بن عبد الله بن يوسف (708-710هـ/1308-1310م).
- أبو سعيد عثمان بن يعقوب (710-731هـ/1310-1330م).
- أبو الحسن علي (المنصور) (731-752هـ/ 1330-1351م).
- أبو عنان فارس (749-759هـ/ 1348-1357م).
- أبو بكر السعيد بن أبي عنان (759-760هـ/ 1357-1358م).
- أبو سالم إبراهيم بن علي (760-762هـ/ 1358-1360م).
- أبي عمر شفين بن أبي الحسن (762-763هـ/1360-1361م).
- محمد بن يعقوب بن علي المدني(763-767هـ/1361-1365م).
- أبو فارس عبد العزيز بن أبي الحسن (767-774هـ/1365-1372م).
- السعيد بالله أبو زيان محمد بن عبد العزيز (774-776هـ/ 1372-1374م).
- موسى بن أبي عنان المتوكل على الله (786-788هـ/ 1384-1386م).

- الوائق أبا زيان محمد بن أبي الفضل بن أبي الحسن (788-789 هـ / 1386-1387م) .
- أبو فارس عبد العزيز (796-799 هـ / 1393-1396م) .
- عبد الله أحمد (799-800 هـ / 1396-1397م) .
- عثمان بن أحمد (800-823 هـ / 1397-1420م) (1)

(¹) بن الأحمر ، نثير فرائد الجمان ، ص ص 26-35 .

ملحق رقم (4):

(رسالة مدح وترحم لأبائه السلطان ابي سالم المريني)

((مولاي ، المرجو المؤمل لإتمام الصنيعة ، وصلة النعمة وإحراز الفخر ، أبقاكم الله تضرب بكم الأمثال في البر والرضا وعلو الهمة ورعي الوسيلة ، مقبل موطئ قدمكم، المنقطع إلى تربة المولى والدكم ، ابن الخطيب ، من الضريح المقدس بشالة وقد حط رحل الرجاء في القبة المقدسة وطمم بالتربة الزكية ، وقعد بإزاء لحد المولى أبيكم ساعة إيباه من الوجهة المباركة ، وزيارة الرُّبُط المقصودة والثرب المعظمة ، وقد عزم ألا يبرح طوعاً من هذا الجو ار الكريم والدخيل المرعي ، حتى يصله من مقامكم ما يناسب هذا التطارح على قبر هذا المولى العزيز على أهل الأرض ، ثم عليكم والتماس شفاعته في أمر يسهل عليكم لا يجرُّ إنفاذ مال ، ولا اقتحام خطر ، ولا التهجم على خطة ، إنما هو إعمال لسان ، وخط بنان ، وصرف عزم ، وإحراز فخر وأجر ، وإطابة ذكر . وذلك أن العبد عرفكم يوم وداعكم أنه ينقل عنكم إلى المولى المقدس والدكم بلسان المقال ما يحضُر مما يفتح الله فيه ثم ينقل عنه لكم بلسان الحال ما يتلقى عنه من الجواب ، وقال لي صدر دولتكم وخالصتكم وخالصة المولى والدكم سيدي الخطيب (يعني ابن مرزوق) سنى الله أمله من سعادة مقامكم وطول عمركم : ((يافلان ، أنت والحمد لله ممن لا ينكر عليه الوفاء بهذين الغرضين)) ، وصدر عنكم من البشر والقبول والأنعام ما صدر ، جزاكم الله جزاء المحسنين ، وقد تقدم تعريف مولاي بما كان من قيام العبد بما نقله إلى التربة الزكية عنكم حسبما أداه من حضر لك المشهد من خدامكم ، والعبد يعرض عليكم الجواب وهو : أني لما فرغت من مخاطبته بمرأى من الملاء الكبير ، والجم الغفير ، أكببت

على اللحد الكريم داعياً ومخاطباً ، وأصغيت بأذني عند قبره وجعل فؤادي يتلقى ما يوحيه إليه لسان حاله فكأنني به يقول لي : ((قل لمولاك يا ولدي وقرة عيني المخصوص برضاي وبري الذي ستر حريمي ورد ملكي وصان أهلي وأكرم صنائعي ووصل عملي ، أسلم عليك وأسأل الله أن يرضى عنك ويقبل عليك) الدنيا داراً غروراً ، والآخرة خير لمن اتقى) ، (وما الناس إلا هالك وابن هالك) ولا تجد إلا ما قدمت عمل يقتضي العفو والمغفرة أو ثناء يجلب الدعاء بالرحمة ومثلك من ذكر فتذكر وعُرفَ فما أنكر ، وهذا ابن الخطيب وقف على قبوري وتهمم بي ، وسبق الناس إلى رثائي ، وأنشدني ومجدني وبكاني ودعالي وهنائي بمصير أمري إليك ، وعفر وجهه في تربي ، وأملني لمّا انقطعت مني آمال الناس ، فلو كنت يا ولدي حيا لما وسعني إلا أن أعمل معه ما يليق بي ، وأن أستقل فيه الكثير وأحتقر العظيم ، لكن لما عجزت عن جزائه ، وكلته إليك وأحلته يا حبيب قلبي عليك ، وقد أخبرني أنه سليل المال ، كثير العيال ، ضعيف الجسم ، قد ظهر في عدم نشاطه أثر السن ، وأمل أن ينقطع بجواري ويستتر بدخيلي وخدمتي ويرد عليه حقه بحرمتي ووجهي ووجوه من ضاجعني من سلفي ، ويعبد الله تحت حرمتك وحرمتي ، وقد كنت تشوقت إلى استخدامه في الحياة حسبها يعلمه حبيبنا الخالص المحبة ، وخطيبنا العظيم المزينة ، القديم الـ قربة ، أبو عبد الله بن مرزوق فأسأله يذكرك واستخبره يخبرك ، فأنا اليوم أريد أن يكون هذا الرجل خديمي بعد الممات إلى أن نلحق جميعاً برضوان الله ورحمته التي وسعت كل شيء ، وله يا ولدي ولد نحيف يخدم باباك وينوب عنه في ملازمة بيت كتابك ، وقد استقر بدارك قراره وتعيين بأمرك مرتبه ودثاره ، فيكون الشيخ خديم الشيخ ، والشباب خديم الشباب ، هذه رغبتني منك وحاجتي إليك ، واعلم أن هذا الحديث لا بد أن يذكر ويتحدث به في الدنيا وبين أيدي الملوك والكبار ، فاعمل

ما بقي لك فخره ، ويتخلد ذكره ، وقد أقام مجاوراً ضريحاً تالياً كتاب الله علي ،
منتظراً ما يصله منك ويقرؤهُ عليّ من السعي في خلاص ماله والاحتجاج بهذه الوسيلة
في جبره ، وإجراء ما يليق بك من الحرمة والكرامة والنعمة، فإله الله يا إبراهيم ،
اعمل ما يسمع عني وعنك فيه ، ولسان الحال أبلغ من لسان المقال ، :)) انتهى،
والعبد يا مولاي مقيم تحت حرمة وحرمة سلفه منتظر منك قضاء حاجته ، ولتعلموا
وتتحققوا أنني لو ارتكبت الجرائم ، ورزأت الأموال ، وسفكت الدماء، وأخذت حسائف
الملوك الأعزة ممن وراء النهر من التتار ، وخلف البحر من الروم ، ووراء
الصحراء من الحبشة ، وأمکنهم الله مني من غير عهد ، بع د أن بلغهم تذممي بهذا
الدخيل ، ومقامي بين هذه القبور الكريمة ، ما وسع أحدا منهم من حيث الحياء
والحشمة من الأموات والأحياء وإيجاب الحقوق التي لا يغفلها الكبار للكبار ، إلا
الجود الذي لا يتعقبه البخل ، والعفو الذي لا تفسده المؤاخذة ، فضلاً عن سلطان
الأندلس ، أسعده الله بموالاتكم ، فهو فاضل وابن ملوك ، وحوله أكياسٌ ما فيهم من
يجهل قدركم وقدر سلفكم لاسيما مولاي والدكم الذي أتوسل به إليكم وإليهم ، فقد كان
يتبنى مولاي أبا الحجاج ويشمله بكنفه ، وصارخه بنفسه ، وأمدّه بأمواله ، ثم صير الله
ملكه إليكم، وأنتم من أنتم ذاتا وقبلاً ، فقد قررت يا مولاي عين العبد بما رأته بهذا
الوطن المراكشي من وفور حشودكم وكثرة جنودكم ، وترادف أموالكم وعددكم ،
زادكم الله من فضله ولا شك عند عاقل أنكم إن انحلت عروة تأميلكم أو أعرضتم عن
ذلك الوطن ، استولت على يد عدوه ، وقد علم تطارحي بين الملوك الكرام الذين
خضمت لهم التيجان ، وتعلقي بثوب الملك الصالح والد الملوك مولاي والدكم ،
وشهرة حرمة شالة معروفة ، حاشا لله أن يضيعها أهل الأندلس ، وما توسل إليهم قط
بها إلا الآن ، وما يجهلون اغتنام هذه الفضيلة الغريبة ، وأملي منكم أن يتعين من بين

يديكم خديم بكتاب كريم يتضمن الشفاعة في رد ما أخذ لي ، ويخبر بمثواي متراميا على قبر والدكم ويقرر ما لزمكم بسبب هذا الترامي من الضرورة المهمة ، والوظيفة الكبيرة عليكم وعلى قبيلكم حيث كانوا ، وتطلبون منهم عادة المكارمة يحل هذه العقدة . ومن المعلوم أني لو طلبت بهذه الوسائل من صلب مالهم ، ما وسعهم بالنظر العقلي إلا حفظ الوجه مع هذا القبيل وهذا الوطن ، فالحياة والحشمة بأبيان العذر عن هذا في كل ملة ونحلة ، وإذا تم هذا الغرض ، ولا شك في إتمامه ، تقع صدقتكم على هذا القبر الكريم بي وتعبي نوني لخدمة هذا المولى وزيارته وتفقدته ، ومدح (النبي صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه) ليلة المولد في جواره وبين يديه ، وهو غرض غريب مناسب لبركم به إلى أن أحج بيت الله بعناية مقامكم وأعود داعياً مثنياً مستدعياً للشكر والثناء من أهل المشرق والمغرب ، وأتعوّض من ذمتي بالأندلس ذمة عند الرباط المبارك ترثها ذريتي .

وقد ساومت في شيء من ذلك منتظراً ثمنه مما يباع بالأندلس بشفاعتكم ، ولو ظننت أنهم يتوقفون لكم في مثل هذا ، أو تتوقع فيه وحشة أو جفاء والله ما طلبته ، لكنهم أسرى وأفضل ، وانقطاعي أيضاً لوالدكم مِعاً لا يسع مجدكم إلا عمل ما يليق بكم فيه ، وها أنا أرتقب جوابكم بما لي عندكم من القبول ، ويسعني مجدكم في الطلب وخروج الرسول لاقتضاء هذا الغرض ، والله يطلع من مولاي على ما يليق به والسلام))⁽¹⁾ .

(1) ابن الخطيب ، نفاضة الجراب ، 81 - 85 .

ملحق رقم (5):

(قصيدة لابن الخطيب يرثي نفسه قبل موته)

أيا جاهلاً غرّة ما يفوتُ وألهاه حالٌ قليلُ الثبوتِ
تأملْ لمنْ بعد أنسٍ يقوتُ بعُدنا وإنْ جاورتنا الثبوتِ
وجئنا بو عِظٍ ونحنُ صموتُ

لقد نلتُ منْ دهرنا رفعةً تَفَضَّتْ كبرق مضي سرعةً
فهيّاهت نرجو لها رجعةً وأصواتنا سكنتُ دفعةً
كجهر الصلّاة تلاه الفنونُ

بدا لي من العزّ وجهُ شبابٍ يُؤمّلُ سيّبي وبأسي يهابُ
فسرعان مُزّقَ ذاك الإهابُ ومدت وقد أنكرتنا الثيابُ
علينا نساءجها العنكبوتُ

فأهاً لعزّ تَقْضِيّ مناماً منحنا به الجاه قوماً كراماً
وكنا نسوسُ أموراً عظاماً وكنا عظاماً فصرنا عظاماً
وكنا نقوتُ فيها نحنُ قوتُ

وكنا لدى الملكِ حلّي الطلّي فأهاً عليه زماناً خلا
نُعَوِّضُ منْ جدّةٍ بالبلّي وكنا شمسَ سماءِ العُلا
غربنا فناحت علينا السموتُ

تعوّدتُ بالرغمِ صرفِ الليالي وحمّلتُ نفسيَ فوقَ احتمالي
وأبقيتُ أنْ سوف يأتي ارتحالي ومَنْ كان منتظراً للزوالِ
فكيفَ يؤمّلُ منه الثبوتُ .

هو الموتُ يا ما له منْ تبا يجوزُ الحجابَ إلى مَنْ أبى

ويألفَ أخذَ سنِّي الحُبِّبا فكم أسلمتَ ذا الحسامِ الطُّبِّي

وذا البختِ كم جدَّ لته البخوت .

هُوَ المَوْتُ أَفصَحَ عَن عُجْمَةٍ وَأيقظُ بالوعظِ مَنْ خَفَقَةٍ

وسلَّى عَن الحزنِ ذا حرقَةٍ وكم سبقَ للقبرِ في خرقَةٍ

فتى مُلئتُ من كساهِ التخوتُ

تقضِّي زماني بعيشِ خصيبِ وعندي لذني انكسارُ المنيبِ

وها الموتُ قد صبتُ منه نصيبي فقلُّ للعدا ذهبَ ابنُ الخطيبِ

وفات ومن ذا الذي لا يفوتُ

مضى ابنُ الخطيبِ كمن قُبِلُهُ وممن بعده يفتنى سُبُلُهُ

وهذا الردي نائر شملُهُ فمن كان يفرحُ منهم له

فقل : يفرح اليوم من لا يموتُ

هو الموتُ عمَّ فما للعدا يُسرُون بي حين ذقتُ الردي

ومن فاته اليوم يأتي غدا سيلى الجديد إذا ما المدى

تتابع آحادُهُ والسُّبوتُ .

أخيَّ توحَّ طريق النَّجاةِ وقدم لنفسك قبلَ المماتِ

وشمرَّ بجدِّ لما هوَ آتٍ ولا تعترُّ بسرابِ الحياةِ

فإنك عما قريبٍ تموت⁽¹⁾ .

(1) المقري ، نفع الطيب ، ج5 / ص ص 113- 115 .

ملحق رقم (6)

(عن أسماء الزوايا والمساجد والمدارس التي زارها ابن الخطيب في المغرب)

فمن الزوايا التي زارها :

- زاوية المخروط بأغمات.
- زاوية النساك ، وهي من جملة الزوايا التي بناها السلطان أبو عنان فارس المريني سنة (757 هـ/1356م) ، و تسمى كذلك زاوية سلا.
- الزاوية الحديثة في مكناسة ، وهي من إنشاء أبي الحسن المريني
- زاوية المسجد الجامع في مدينة آسفي.

ومن المساجد التي تحدث عنها ابن الخطيب :

- مسجد الإمام المهدي ، مؤسس دولة الموحدين المتوفي سنة (522 هـ/ 1128م).
- المسجد البديع ، السامي المئذنة- كما قال ابن الخطيب.
- المسجد الجامع بأغمات .
- مسجد الصلاة بآسفي.
- المصلى العيدي ، وهو فضاء فسيح تقام فيه صلاة العيدين.

ومن المدارس التي ذكرها ابن الخطيب :-

- مدرسة الإمام المهدي.
- المدرسة العظمى .
- مدرسة آسفي
- مدرسة أنفا.
- المدرسة الطبية بسلا.
- المدرسة الجديدة ، التي بناها أبي الحسن المريني.⁽¹⁾

(1) ابن الخطيب ، نفاضة الجراب ، ص 55 وما يليها .

ملحق رقم (7) :

(مصنفات ابن الخطيب)

لقد نقل المقرئ في كتابه الذي خُذ فيه الوزير ابن الخطيب (نوح الطيب من غصن الأندلس الرطيب و ذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب) مصنفات وكتب هذا المؤرخ التي تفوق الستين ، منها ما هو موجود ومنها ما هو مفقود في وقت إعداد هذه الرسالة ، وهي في غاية البراعة والأهمية أثرى بها ابن الخطيب التراث العربي الإسلامي من تاريخ وسياسة وطب وأدب ، وقد وقف المقرئ على الكثير منها .
وبعض هذه الكتب تم تأليفها في غرناطة ، وبعضها في سلا وفاس وتلمسان بالمغرب .

فمن كتبه في غرناطة :

- 1- الإحاطة في أخبار غرناطة .
 - 2- جيش التوشيح .
 - 3- روضة التعريف بالحب الشريف .
 - 4- ربحانة الكتاب ونجعة المنتاب .
 - 5- الوصول لحفظ الصحة في الفصول .
 - 6- المنهل العذب في شرح أسماء الرب .
 - 7- خطرة الطيف ورحلة الشتاء والصيف .
 - 8- استنزال اللطف الموجود في سر الوجود .
 - 9- تأليف في الأدب .
 - 10- مقنعة السائل عن المرض الهائل (الطاعون) .
- أما مؤلفاته في المغرب العربي الإسلامي ، فهي :
- 1- نفاضة الجراب في علالة الاغتراب .
 - 2- رقم الحلل في نظم الدول .
 - 3- معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار .
 - 4- مفاضلة بين مالقة وسلا .
 - 5- الحلل المرقومة في اللمع المنظومة .
 - 6- فن العلاج في صنعة الطب .

- 7- مثلى الطريقة في ذم الوثيقة .
- 8- السحر والشعر .
- 9- رجز في الأغذية .
- 10- كناسة الدكان بعد انتقال السكان .
- 11- اللحة البدرية في الدولة النصرية .
- 12- عمل من طب لمن حب .
- 13- الكتيبة الكامنة فيمن لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة .
- 14- أعمال الأعلام فيمن بويغ قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يجر ذلك من شجون الكلام .

وهذه الكتب القليل منها مطبوع ، والباقي لا يزال مخطوطاً ، ينتظر من ينشره .
ومن مؤلفاته التي لم تشتهر أو لم تصل إلينا :-

- 1- بستان الدول .
- 2- التاج المحلى في مساجلة القدح المعلى .
- 3- الإكليل الزاهر فيما فضل عن نظم التاج من الجواهر .
- 4- طرفة العصر في دولة بني نصر .
- 5- الأرجوزة المعلومة (في السموم) .
- 6- تخصيص الرياسة بتخليص السياسة .
- 7- منظومة في سياسة الملوك .
- 8- المباخر الطيبية في المفاخر الخطيبية .
- 9- خلع الرسن في أمر القاضي أبي الحسن .
- 10- اليوسفي في صناعة الطب .
- 11- عائد الصلة .
- 12- تخصيص الذهب في اختيار الكتب .
- 13- اختيار كتاب التاج .
- 14- الإشارة إلى أدب السياسة في الوزارة
- 15- الدرر الفاخرة واللجج الباهرة .
- 16- مجموعة من شعر شيخه أبي الحسن بن الجياب .
- 17- نقطة من يم (نثر شيخه ابن الجياب)

- 18- البيزرة .
- 19- البيطرة
- 20- النفاية بعد الكفاية .
- 21- ميزان الاختبار .
- 22- الرجز في الترياق الفاروقي .
- 23- قطع السلوك .
- 24- أرجوزة في السياسة المدنية .
- 25- رسالة تكوين الجنين .
- 26- كتاب الوزارة .
- 27- المسائل الطبية .
- 28- الغيرة على أهل الحيرة .
- 29- حمل الجمهور على السنن المشهور .
- 30- الزبدة الممخوضة .
- 31- الرد على أهل الإباحة .
- 32- سد الذريعة في تفصيل الشريعة .
- 33- تقرير الشبه وتحريم الشبه .
- 34- أبيات الأبيات .
- 35- قتات الخوان ولقط الصوان .
- 36- الحالي والعاطل والمسعف والمائل⁽¹⁾ .

(1) المقري ، نفع الطيب ، ج 7 / ص97 وما بعدها ، كذلك ينظر : قلقيلة ، خط سير العرب، ص 463.

ملحق رقم (8) :

قبر المؤرخ والوزير لسان الدين بن الخطيب بفاس بالمغرب الأقصى⁽¹⁾



(1) ابن الخطيب ، جيش التوشيح ، المقدمة .